بحث في تعيين الشرع لأول المخلوقات

وبيان خطأ ابن تيمية في نصرته لمذهب الفلاسفة في قولهم بحوادث لا أول لها

دراسة حديثية ومناقشة نظرية فيما استدل به الامام ابن تيمية

بقلم

أحمد فوزي وجيه

تنويه:

مقدمة:

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

الامام أحمد بن عبد السلام ابن تيمية ولد عام (661ه) وتوفي عام (728ه)
من شيوخ الاسلام وكبار علمائه وصاحب نفس طويل في أبحاثه ومناقشاته واستنباطه
للأحكام من الأدلة الشرعية وكثرة اطلاعه على الكتب بمختلف أنواعها رحمه الله
وأكثر ما يعجبني في هذا الامام صفة الاستقلال والتحرر في البحث والاجتهاد
فهو في بحثه مستقلاً عن الآخرين يستشهد بأقوالهم ولا يحتج بها
ولا يلتزم التقليد بل شيخه وإمامه الدليل
وإذا انتهى ببحثه إلى نتيجة تخالف مذهبه أو المذاهب المتبوعة في عصره فطالما دل
الدليل عليها فهو قائل بها ولا يبالي وإن خالف كل فقهاء زمانه
ثم هو لا يكتفي ببحثه في الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة بل لابد من إيراد الحجج
العقلية الموافقة للدليل السمعي وكتابه (درء تعارض العقل والنقل) هو سفر ضخم في
التوفيق بين الأدلة السمعية والحجج المنطقية

وكم عانى وأوذي بسبب آراؤه واجتهاده كما حدث معه في مسألة طلاق الثلاث وزيارة قبر النبي واثبات الصفات وغير ذلك من أقوال حُبس وعوقب بسببها واجتمع عليه فقهاء زمانه وشنعوا عليه بها

واليوم وبعد قرون من وفاته ينصر الله ابن تيمية وينتشر مذهبه ويكثر أتباعه وتبقى فتواه في الطلاق هي المعتمدة عند الفقهاء والقضاة في المحاكم
قال الله تعالى: (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)
فهذا الامام عنده من الاستقلال الشيء الكثير وهو متحرر في أبحاثه حتى ما يزعمه البعض إجماعاً لا يعترف به إذا خالف النص وكان يقول: ما من حكم اجتمعت الأمة عليه إلا وقد دل عليه النص فالإجماع دليل على نص موجود معلوم عند الأئمة. ه
منهاج السنة 8/ 344
ومثل هذه الاستقلالية وهذا التحرر نحن في أمس الحاجة إليها لاسيما وقد كثر التقليد والتعصب للمشايخ بل كثر التعصب لابن تيمية نفسه
فترى الكثيرين من طلبة العلم لا يقبل منك مخالفة ابن تيمية فيما ذهب إليه لا سيما إن كان البحث في الجانب العقدي أو المنهجي وربما يتسامح معك في بعض فروع الفقه أو الحكم على بعض الأحاديث صحة وضعفاً
أما في غير ذلك فلا يراك إلا مبتدعاً
وهذا هو عين التعصب الذي حاربه ابن تيمية في عصره وفي كتبه وطول حياته !

ومن أطال النفس في كتب ابن تيمية عرف مدى استقلالية الامام وتحرره من ربقة التعصب والتقليد وكم هو برئ من التعصب المنتشر في كثير من طلبة العلم اليوم ورميهم بالبدعة لكل من خالفهم أو خالف ابن تيمية رحمه الله

إلا أن الامام أحياناً يأتي بنتائج قد لا يوافق عليها شأنه في ذلك كغيره من أئمة الاسلام المجتهدين يصيبون ويخطئون فهم بشر مجتهدون

لكنَّ بعض الجامدين والمقلدين ممن في قلوبهم شنئان من ابن تيمية لا يقيلون العثرات ولا يغفرون الزلات فيطلقون البدعة بل والكفر أيضاً على ابن تيمية لقوله بأن الحوادث المخلوقة لا أول لها

مع أن الامام في هذه المسألة خصيصاً قد سلك مسلكهم وسار على نهجهم في التأويل بغرض التنزيه وهو المنهج الذي طالما حذر منه الامام !

لكنه رحمه الله قد سلكه هنا تعظيماً وتنزيهاً لله رب العالمين أو هذا ما أداه إليه ظنه واجتهاده

فبدعوه وكفروه لما سلك منهجهم الذي هم فيه غارقون لاسيما في باب أسماء الله تعالى وصفاته الحسنى

وصار الناس على ابن تيمية في هذه المسألة فريقان:

فريق بدعه أو كفره وفريق وافقه وناصره وبدّع من خالفه !

وثَمَّة فريق ثالث وهم الذين خالفوا ابن تيمية فيما ذهب إليه من القول بأن المخلوقات لا أول لها لكنهم لم يشنعوا عليه بل عاملوه في هذا معاملة المجتهد الذي أخطأ فله أجر إن شاء الله

وهذا هو موضوع البحث في هذا الكتاب وهو بيان أول المخلوقات وفق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة

ثم مناقشة ابن تيمية ومن وافقه من الفلاسفة في قولهم بحوادث لا أول لها

وهذه المناقشة مقتصرة وقائمة على الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والنظر الصحيح

وإلا فهذه المسائل لها بعد فلسفي جدلي لا أتوسع فيه

ولها بعد فيزيائي كوني لم أتعرض إليه إذ لازال العلم قاصراً في التوصل إلى الأدلة الكافية أو النظرية العلمية المقبولة في تفسير تاريخ الكون قبل نشأته

وختاماً أقول:

إن الغرض من هذا البحث هو معرفة القول الصحيح الموافق للشرع

ثم تنشيط عقل القارئ المسلم وتنبيه الباحثين في العلوم الشرعية إلى ضرورة البحث المتجرد عن الهوى والبعد عن التعصب والتقليد

مع الانصاف والحرص على احترام العلماء وإن خالفوك القول

وعدم التسرع إلى التشنيع والتبديع لكل من خالفك أو خالف إمامك أو مذهبك

فالحق لم يجتمع لأحد من الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومهما عظم شأن الامام وعُرفت مكانته وتمسكه بالسنة فالخطأ عليه وارد في كل أبواب العلم

والقول بأن جنس المخلوقات لا بداية له مما شذ به الامام ابن تيمية وخالف فيه جمهور أهل السنة رحمه الله وغفر له.

فصل في بيان وتعيين أول المخلوقات

ـ قال البخاري رحمه الله: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ حَدَّثَنَا جَامِعُ بْنُ شَدَّادٍ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ قَالُوا قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا مَرَّتَيْنِ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ قَالُوا قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالُوا جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ قَالَ كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَنَادَى مُنَادٍ ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الْحُصَيْنِ فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا . ه [1]

وعند البخاري في كتاب التوحيد (7418):
جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ مَا كَانَ قَالَ: كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ... الحديث

---

1 رواه البخاري (3191) وابن خزيمة (884/2) وابن حبان (6140) والنسائي في الكبرى (10798) والطحاوي في مشكل الآثار (300/14) والبيهقي في السنن الكبرى (17702) وفي الأسماء والصفات (800) والروياني في مسنده (حديث:140) والطبراني في المعجم الكبير (203/18) وابن منده في التوحيد (حديث:7) والآجري في الشريعة (764/2) والفريابي في القدر (حديث:82) وابن أبي شيبة في العرش وما روي فيه (حديث رقم 1) وعثمان الدارمي في الرد على الجهمية (حديث 40) وأبو نعيم في حلية الأولياء (259/8)
كلهم من طريق جامع بن شداد المحاربي عن صفوان بن محرز المازني عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم
ورواه ابن شاهين من طريق الصحابي نافع بن زيد الحميري واسناده واهٍ فيه مجاهيل.
انظر الاصابة لابن حجر (320/6) والعلو للذهبي (ص109)

.

وفي رواية عند البخاري في مقدمة كتاب بدء الخلق (3190):
فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ بَدْءَ الخَلْقِ وَالعَرْشِ ... الحديث

هذا الحديث عمدة في المسألة ونص في الباب إذ جاء أهل اليمن يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن بداية المخلوقات قالوا (ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان)
فأجابهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بوحي من العليم سبحانه بأول هذا الأمر
وأن الله تعالى كان ولا شئ غيره ولا شئ سواه سبحانه
ثم خلق المخلوقات فكانت بعد أن لم تكن
فأول ما خلق الماء والعرش ثم خلق القلم فكتب في الذكر كل شئ ثم خلق السماوات والأرض وما بينهما في هذا الكون العظيم الدال على قدرة العليم الحكيم سبحانه

والواو التي عطفت بها جمل الحديث وإن كانت لا تفيد الترتيب إلا أن المراد في هذا الحديث هو ذكر المخلوقات الأول فالأول: الماء والعرش ثم القلم والذكر ثم السموات والأرض لأن هذا هو مقتضى الإجابة على سؤال السائلين الذين سألوه عن أول هذا الأمر وإلا لما عُدّت هذه إجابة على سؤالهم بأولية هذا الأمر ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك قد أجابهم

وفي رواية عند النسائي 11176 والفريابي 83 (فَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ)
ورواه أبو اسحاق الفزاري كما عند الدارمي في الرد على الجهمية 40 والفريابي في القدر 82 والروياني 140 وغيرهم
وأبو عوانة عند الفريابي في القدر 84
وأبو عبيدة بن معن عند ابن حبان 6140
ثلاثتهم (الفزاري وأبو عوانة وأبو عبيدة) عن الأعمش عن جامع بن شداد به بلفظ (ثُمَّ كَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ)

فإن كان لفظ (ثم) محفوظ في الحديث فهو نص في الترتيب وإن كان من باب الرواية بالمعنى وهو الأقرب ففيه أن رواة الحديث لم يفهموا منه إلا إرادة الترتيب وهو ظاهر من سياقه والحمد لله

وأما رواية البخاري في كتاب التوحيد 7418 (ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء) فهذا تصرف من بعض الرواة في ترتيب الجمل ولا تفيد شيئاً

فالكتابة كانت قبل الخلق في هذا الحديث وغيره من الأحاديث والتي تفيد العلم في كون الكتابة قبل خلق السموات والأرض
منها على سبيل المثال ما رواه مسلم في صحيحه (كتاب القدر حديث 2653) عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال:
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء. ه

فهذا تصرف من بعض الرواة على خلاف الجادة في ترتيب جمل الحديث.

وقوله: (وكان عرشه على الماء) يعني: ثُمَّ خَلَقَ الْمَاءَ وَخَلَقَ الْعَرْشَ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ كَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ. قاله البيهقي في الأسماء والصفات 234/2

ومن المعلوم في الأذهان أن البناء يأتي بعد الأساس وأن المبني عليه يكون قبل المبني فإذا كان الله تعالى جعل عرشه على الماء فلا شك أن الماء كان موجوداً قبل العرش وإذا قال قائل جعلت بيتي على هذه الأرض فلا يتصور أن البيت كان قبل الأرض بل وجود الأرض المبني عليها لازم أولاً ثم يأتي بناء البيت بعدها

قال البيهقي: قوله: "كان الله ولم يكن شيء غيره" يدل على أنه لم يكن شيء غيره لا الماء ولا العرش ولا غيرهما وكل ذلك أغيار وقوله: "وكان عرشه على الماء" يعني به ثم خلق الماء وخلق العرش على الماء وبيان ذلك في حديث أبي رزين العقيلي عن النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: ثم خلق العرش على الماء. ه
الأسماء والصفات 776 والاعتقاد ص91

وحديث أبي رزين الذي ذكره البيهقي ضعيف و سيأتي بيان ضعفه لكن كلام البيهقي تفسير صحيح للحديث وهو أن أول ما خلق الله الماء ثم العرش على الماء ثم خلق القلم وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض

و أما الحديث الذي فيه أن أول ما خلق الله القلم فإليك بيناه:

الكلام على حديث القلم

وهو يروى عن جماعة من الصحابة منهم:

1- عبادة بن الصامت رضي الله عنه:

وقد روي عنه من وجوه وبألفاظ:

الأول: إن أول ماخلق الله القلم فقال له: اكتب قال: ما أكتب؟ قال : اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد. ه

رواه الطيالسي 578 والترمذي 2155-3319 وابن الجعد 3444 وغيرهم
من طريق عبد الواحد بن سليم عن عطاء بن أبي رباح عن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه
وعبد الواحد بن سليم ضعيف وأشار البخاري إلى ضعفه في التاريخ 92/6

قلت: ثم وجدت له متابعة عند ابن أبي عاصم في السنة 104 والفريابي في القدر 425 والآجري في الشريعة 864/2 وغيرهم من طريق بقية بن الوليد عن معاوية بن سعيد عن عبد الله بن السائب عن عطاء عن الوليد بن عبادة عن أبيه.

الثاني: إن أول ما خلق الله القلم ثم قال: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة. ه

رواه أحمد 22707 والبزار 137/7 والطبراني في الشاميين 1949 وغيرهم
من طريق معاوية بن صالح عن أيوب بن زياد عن عبادة بن الوليد بن عبادة عن أبيه عن جده
وأشار البخاري في التاريخ 92/6 إلى اضطراب معاوية بن صالح في اسناده.

الثالث: إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب قال: يا رب ماذا اكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. ه

رواه أبو داود 4700 والطبراني في الشاميين 59 وأبو نعيم في الحلية 248/5 وغيرهم من طريق يحيى بن حسان عن الوليد بن رباح عن إبراهيم بن أبي عبلة عن أبي حفص عن عبادة بن الصامت
قال أبو نعيم: غريب من حديث إبراهيم تفرد به يحيى عن الوليد ورواه إبراهيم عن أبي يزيد الأودي عن عبادة نحوه. ه

قلت: وهم يحيى بن حسان في اسناده فقال (الوليد بن رباح) وصوابه (رباح بن الوليد) وقال (عن أبي حفص) وصوابه (عن أبي يزيد) كما رواه مروان بن محمد عند الطبراني في الشاميين 58 وأشار إليه أبو نعيم
وأبو يزيد هذا مجهول الحال
وعند ابن أبي عاصم في السنة 102 بنفس اسناد الطبراني وسماه أبو عبد العزيز الأردني
والظاهر أنهما واحد وهو مجهول.

الرابع: أول ما خلق الله القلم ثم قال له: اكتب قال: وما أكتب؟ قال: القدر قال: فكتب ما يكون وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة. ه

رواه أحمد 22707 وابن أبي عاصم في السنة 103 من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه وابن لهيعة ضعيف.

الخامس: إن أول شيء خلق الله القلم فقال: اكتب قال: وما أكتب؟ قال: اكتب القدر فجرى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة. ه

رواه الآجري في الشريعة 516/1-767/2 والبيهقي في القضاء والقدر 209
من طريق معاوية بن يحيى عن الزهري عن محمد بن عبادة بن الصامت عن أبيه ومعاوية بن يحيى ضعيف.

السادس: القدر على هذا من مات على غير هذا أدخله الله النار. ه

رواه الطبراني في الأوسط 6318 وفي الشاميين 1608 وابن أبي عاصم في السنة 111 والفريابي في القدر 75 والشاشي 1193 وغيرهم
من طريق الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبي العاتكة عن سليمان بن حبيب عن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه ولم يذكر خلق القلم

قال الطبراني: لَمْ يَرْوِهِ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ حَبِيبٍ الْمُحَارِبِيِّ إِلَّا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاتِكَةِ تَفَرَّدَ بِهِ الْوَلِيدُ. ه

قلت: أعله الطبراني بتفرد الوليد بن مسلم وهو مدلس ولم يصرح بالسماع.

قال مقبل الوادعي: وقد صح الحديث مرفوعاً من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه وقد كتبته بأسانيده في الجامع الصحيح في القدر. ه
أحاديث معلة ظاهرها الصحة 211

قلت: لا تخلو طرقه من ضعف ولعل له أصل بمجموع طرقه والله أعلم.

2- عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً

قال: إن أول شيء خلقه الله القلم وأمره فكتب كل شيء. ه

رواه عبد الله بن أحمد في السنة 854 وابن أبي عاصم في السنة 108 وأبو يعلى في مسنده 2329 ومعجمه 69 والطبري 526/23 والفريابي 65 وغيرهم
من طريق عمر بن حبيب عن القاسم بن أبي بزة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً

وخالفه هشام الدستوائي فرواه كما في السنة لعبد الله بن أحمد 898 والطبري 566/21 عن القاسم بن أبي بزة عن عروة بن عامر عن ابن عباس موقوفاً وهو أصح

وكذا رواه موقوفاً عن ابن عباس كلاً من:

- مجاهد عند الطبري 527/23 والدارمي 44 والفريابي 78-80-81 وغيرهم.

- أبو ظبيان في تفسير عبد الرزاق 3273 والطبري 521/23 والسنة لعبد الله بن أحمد 872 والفريابي 77 وغيرهم.

- أبو الضحى عند الطبري 524/23 وعبد الله بن أحمد في السنة 871-894 والكنى والأسماء للدولابي 1233 وغيرهم من طريق عطاء بن السائب عنه عن ابن عباس ورواه ابن أبي شيبة 36003 عن ابن فضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

قال مقبل الوادعي بعد تخريج طرقه:
فعلم بهذا أن المرفوع شاذ وأن الصحيح وقفه على ابن عباس رضي الله عنهما. ه
أحاديث معلة ظاهرها الصحة 211

قلت: وقد احتج أحمد بن حنبل بهذا الأثر عن ابن عباس موقوفاً في قضية خلق القرآن كما رواه ابن بطة 22/6 والآجري 510/1 قال:
قول ابن عباس حجة عليهم أول ما خلق الله القلم وكلام الله قبل أن يخلق القلم.

فاحتج به موقوفاً وهو المحفوظ.

3- عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً

قال: أول ما خلق الله تعالى القلم فأخذه بيمينه وكلتا يديه يمين قال: فكتب الدنيا وما يكون فيها من عمل معمول بر أو فجور رطب أو يابس فأحصاه عنده في الذكر فقال: اقرأوا إن شئتم هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون فهل تكون النسخة إلا من شيء قد فرغ منه. ه

رواه ابن أبي عاصم في السنة 106 من طريق ابن مصفى
والآجري في الشريعة 759/2 و1147/3 من طريق الربيع بن نافع
وعند الطبراني في الشاميين 673 من طريق نعيم بن حماد
ثلاثتهم (ابن مصفى والربيع ونعيم) عن بقية بن الوليد عن أرطاة بن المنذر عن مجاهد بن جبر عن ابن عمر

ورواه الفريابي في القدر 416 ومن طريقه الآجري في الشريعة 2/760-947 و3/1147 عن مالك بن سليمان الألهاني عن بقية عن أرطاة بن المنذر عن مجاهد أنه بلغه عن ابن عمر
فكشف عن علته وبين أن مجاهداً لم يسمعه من ابن عمر وإنما بلغه عنه

ورواه الدارقطني في الصفات 14 من طريق عتبة بن السكن الفزاري (متهم بالكذب) عن أرطأة بن المنذر عن ليث بن أبي سليم (ضعيف) عن مجاهد عن ابن عمر

ولم يذكر بقية سماعاً من أرطأة عن مجاهد فيما سبق من الروايات وهو وإن صرَّح بالسماع من شيخه فقد عنعنه عن شيخ شيخه والظاهر أنه دلسه وهو معروف بفعل ذلك والله أعلم.

4- أبو هريرة رضي الله عنه مرفوعاً

قال: إن أول شيء خلقه الله القلم ثم خلق النون وهي الدواة ثم قال: اكتب قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما يكون وما هو كائن من عمل أو أثر أو رزق أو أجل فكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة فذلك قوله عز وجل: ن والقلم وما يسطرون ثم ختم على القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة. ه

رواه الفريابي في القدر 18 والآجري في الشريعة 1/513 و2/766 والابانة لابن بطة 3/335 وغيرهم من طريق الحسن بن يحيى الخشني عن الحسين أبي عبد الله مولى بني أمية عن أبي صالح عن أبي هريرة
والخشني ضعيف وشيخه مجهول

وفي أحاديث أبي عمران البزاز ص91 من طريق محمد بن وهب الدمشقي عن الوليد بن مسلم عن مالك بن أنس عن سمي عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة
وأورده ابن عدي 7/521 في مناكير محمد بن وهب وقال: وهذا بهذا الإسناد باطل منكر.
وقال الذهبي موضوع
(تاريخ الاسلام 5/697 وميزان الاعتدال 4/61)

قلت: أصح ما في الباب مرفوعاً حديث عبادة بن الصامت وعامة طرقه لا تخلو من ضعف إلا أنه يمكن أن تتقوى بمجموعها أو بما لبعضها من متابعات والله أعلم.

من قال بأولية القلم والرد عليه

هذا الحديث احتج به بعض أهل العلم على أن القلم هو أول المخلوقات

وأشهر من انتصر لهذا المذهب من المتقدمين الامام ابن جرير الطبري حيث قال:
وقد روينا عنه عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: أَوَّلُ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقَلَمُ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ مِنْهُ شَيْئًا مِنَ الأَشْيَاءِ أَنَهُّ تَقَدَّمَ خَلْقَ اللَّهِ إِيَّاهُ خلق القلم بل عمم بقوله صلى الله عليه وسلم: ان أول شيء خلقه الله القلم كل شَيْءٍ وَأَنَّ الْقَلَمَ مَخْلُوقٌ قَبْلَهُ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَائِهِ مِنْ ذَلِكَ عَرْشًا وَلا مَاءً وَلا شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ. ه
تاريخ الطبري 35/1-36

وممن انتصر لهذا القول من المعاصرين الامام الألباني وسيأتي كلامه

وأما مذهب جمهور العلماء فهو أن العرش على الماء موجودٌ قبل خلق القلم
وقد جمعوا بين هذا الحديث وحديث عمران بن حصين بأجوبة منها:

قال ابن تيمية: وأما الحديث الذي فيه أول ما خلق الله القلم وأنه أمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة فذلك بيان لخلق العالم الذي خلقه في ستة أيام وأن تقدير هذا العالم كان قبل خلقه وأنه أول ما خلق من أسباب هذا العالم القلم لأن تقدير المخلوق سابق لخلق المخلوق. ه
الصفدية 82/2

وقال ابن القيم في النونية:

والناس مختلفون في القلم الذي * كُتِبَ القضاء به من الديَّانِ**

هل كان قبل العرش أو هو بعده * قولان عند أبي العلا الهمذاني**

والحق أن العرش قبل لأنه * عند الكتابة كان ذا أركانِ**

وقال ابن حجر: وأما ما رواه أحمد والترمذي وصححه من حديث عبادة بن الصامت مرفوعا أول ما خلق الله القلم ثم قال اكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة فيجمع بينه وبين ماقبله بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة أي أنه قيل له اكتب أول ما خُلق. ه
فتح الباري 289/6

وقال ابن عثيمين: وأما بالنسبة للقلم فليس في الحديث دليل على أن القلم أول شيء خلق بل معنى الحديث أنه في حين خلق القلم أمره الله بالكتابة فكتب مقادير كل شيء. ه
مجموع فتاوى ورسائل العثيمين 62/1

قلت: وهذا هو المعتمد جمعاً بين الأدلة وأخذاً بالمنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لاسيما وقد جاء في بعضها ذكر القلم كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء)

فأثبت وجود العرش على الماء قبل القلم وكتابة المقادير

وكذا حديث عمران بن حصين السابق وهما في الصحة أقوى وأثبت من حديث عبادة المذكور

وكذلك في حديث عبادة: إن أول ماخلق الله القلم فقال له: اكتب قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد.

فقوله (ما كان) فيه إثبات وجود الخلق قبل القلم فهناك ما كان في الماضي وسابق عن خلق القلم وهناك ما هو كائن في المستقبل بعد خلق القلم

فالحديث لا يفيد الأولية المطلقة لخلق القلم بل هي أولية نسبية لخلق السموات والأرض وما فيهن وهو ما جاء التصريح به في حديث عمران بن حصين: وكان عرشه على الماء ثم كتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض.

وفي حديث سفيان الثوري عن أبي هاشم عن مجاهد عن ابن عباس: ذُكر له قوم يتكلمون في القدر فقال: إن الله تعالى استوى على عرشه قبل أن يخلق شيئا فكان أول ماخلق القلم فأمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. ه

رواه الطبري 526/23 والدارمي 44 والفريابي 78-80 وغيرهم وإسناده صحيح موقوف

ورواه ابن أبي شيبة في العرش (حديث رقم5) من طريق أبي عامر الأسدي عن سفيان الثوري عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عباس والأسدي مجهول الحال.

ورواه الطبري 527/23 والفريابي 81 وابن بطة 338/3 وغيرهم عن شعبة عن أبي هاشم عن مجاهد عن ابن عباس قال شعبة: لا أدري عن عبد الله بن عباس أو عبد الله بن عمر بلفظ:
أَنَّ أَوَّلَ مَا خُلِقَ مِنْ شَيْءٍ الْقَلَمُ فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ فَإِنَّمَا يَعْمَلُ النَّاسُ فِيمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ.

وما شك فيه شعبة جزم به الثوري وأسند الأثر من كلام عبد الله بن عباس

ورواية الثوري فيها تفسير للمراد من أولية خلق القلم المذكورة في الحديث وأن العرش قد سبقه في الخلق كما تقدم وهذا هو مذهب جمهور العلماء.

قال ابن كثير بعد ذكر حديث أول ما خلق الله القلم:
وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ فِيمَا نَقَلَهُ الْحَافِظُ أبو العلاء الهمدانيّ وَغَيْرُهُ أَنَّ الْعَرْشَ مَخْلُوقٌ قَبْلَ ذَلِكَ وَهَذَا هُوَ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ الضَّحَّاكِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[2] كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ. ه
البداية والنهاية 8/1

قلت: وعن قتادة (وكان عرشه على الماء) قال: ينبئكم ربكم تبارك وتعالى كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض. ه
تفسير الطبري 246/15 وابن أبي حاتم 2005/6 وعبد الرزاق 1182

---

[2] وهو قوله "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْعَرْشَ أَوَّلَ مَا خَلَقَ فَاسْتَوَى عَلَيْهِ". (تاريخ الطبري 39/1)

وقال جبير بن نفير: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَإِنَّهُ خَلَقَ الْقَلَمَ فَكَتَبَ مَا هُوَ خَالِقٌ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ سَبَّحَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَمَجَّدَهُ أَلْفَ عَامٍ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ اللَّهُ خَلْقَ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ. ه

رواه الفريابي في القدر 104 ومن طريقه الآجري في الشريعة 903/2 عن عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن ضمرة بن حبيب عن جبير بن نفير

ورواه أبو الشيخ في العظمة 368/1 عن عبد الله بن وهب عن معاوية بن صالح عن ضمرة بن حبيب عن جبير بن نفير بلفظ: .. إن الله عز وجل كان عرشه على الماء وإنه خلق القلم فكتب ما هو خالق إلى يوم القيامة وما هو كائن إلى يوم القيامة ثم إن ذلك الكتاب سبح الله ومجده ألف عام قبل أن يبدأ خلق شيء من الخلق. ه

رواه الفريابي في القدر 76 عن عمرو بن عثمان عن بقية بن الوليد عن أرطاة بن المنذر عن ضمرة عن جبير بن نفير بلفظ: إن الله عز وجل كان عرشه على الماء وإنه خلق القلم وكتب ما هو خالق وما هو كائن من خلقه.

ورواه أبو الشيخ في العظمة 580/2 عن محمد بن عمرو بن حنان عن بقية بن الوليد به ورفعه وأخطأ ابن حنان في رفعه وإنما هو موقوف عن جبير بن نفير

وقال مجاهد في قوله تعالى: (وكان عرشه على الماء) يعني قبل أن يخلق شيئا. ه
رواه الطبري 245/15 وابن أبي حاتم 2005/6 في تفسيرهما

وأثر مجاهد هذا تبطل به دعوى الألباني في تضعيف أثر أبي هاشم عن مجاهد عن ابن عباس السابق ذكره

قال الألباني في السلسلة الضعيفة 6309:
(تنبيه): وأما الرواية التي أخرجها الطبري في كتابيه من طريق سفيان عن أبي هاشم عن مجاهد عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ موقوفاً بلفظ:
إن الله تعالى ذِكْرُهُ كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً فكان أول ما خلق الله القلم فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة .... الحديث.

فهو منكر جداً عندي لقوله: قبل أن يخلق شيئاً... فإنه يشعر أن العرش غير مخلوق!
وهذا باطل وقد رواه شعبة عن أبي هاشم فلم يذكر فيه هذا الباطل ولعله من قبل أبي هاشم الرماني فإنه وإن كان ثقة بالاتفاق فقد غمزه ابن حبان فقال في ثقاته 596/7:
كان يخطئ يجب أن يعتبر حديثه إذا كان من رواية الثقات عنه فأما رواية الضعفاء عنه ... فان الوهن يلزق بهم دونه لانه صدوق لم يكن له سبب يوهن به غير الخطأ والخطأ متى لم يفحش لا يستحق من وجد فيه ذلك الترك. ه

قلت: ليس في هذا الأثر ما يستنكر فالعرش مخلوق قبل المخلوقات
فقول ابن عباس (قبل أن يخلق شيئاً) أي قبل خلق السماوات والأرض وما فيهن كما جاء في صحيح مسلم: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء.
وقال قتادة في تفسير قوله تعالى (وكان عرشه على الماء): هذا بدء خلقه قبل أن يخلق السماء والأرض.
وقال مجاهد: يعني قبل أن يخلق شيئا.

ومجاهد هو رواي الأثر عن ابن عباس
وقد قال هنا نفس القول الذي رواه عن شيخه ابن عباس
فأين النكارة والبطلان !

وتفسير مجاهد هذا يبطل التهمة عن أبي هاشم في هذا الأثر فإنه من رواية عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد

وأما ما نقله عن ابن حبان فلا يأتي هنا لأن ابن حبان فرّق بين إذا كان حديثه من رواية الثقات وإذا كان من رواية الضعفاء عنه
وهذا الأثر من رواية الثقات عنه والرجل ثقة بالاتفاق
فاستنكار حديثه هو المستنكر !

وقد انتصر الألباني في هذه المسألة لقول ابن جرير الطبري في أن القلم أول المخلوقات مطلقاً فقال معلقاً على حديث القلم:
في الحديث إشارة إلى رد ما يتناقله الناس حتى صار ذلك عقيدة راسخة في قلوب كثير منهم وهو أن النور المحمدي هو أول ما خلق الله تبارك وتعالى وليس لذلك أساس من الصحة ...

وفيه رد على من يقول بأن العرش هو أول مخلوق ولا نص في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنما يقول به من قاله كابن تيمية وغيره استنباطاً واجتهاداً فالأخذ بهذا الحديث وفي معناه أحاديث أخرى أولى لأنه نص في المسألة ولا اجتهاد في مورد النص كما هو معلوم.
وتأويله بأن القلم مخلوق بعد العرش باطل لأنه يصح مثل هذا التأويل لو كان هناك نص قاطع على أن العرش أول المخلوقات كلها ومنها القلم أما ومثل هذا النص مفقود فلا يجوز هذا التأويل.
وفيه رد أيضاً على من يقول بحوادث لا أول لها وأنه ما من مخلوق إلا ومسبوق بمخلوق قبله وهكذا إلى مالا بداية له بحيث لا يمكن أن يقال هذا أول مخلوق فالحديث يبطل هذا القول ويُعَيِّن أن القلم هو أول مخلوق فليس قبله قطعاً أي مخلوق. ه
السلسلة الصحيحة 257/1

وقال الألباني جواباً عن سؤال:
في أثناء طرحك للسؤال ذكرت حديث عمران بن حصين وذكرت حديث القلم .. كيف التوفيق بينهما؟

فأجاب: من وجوه التوفيق التي ذكرها علماء الحديث جزاهم الله خيراً وقد أبلغوها إلى أكثر من مائة وجه من وجوه التوفيق بين نصين يبدو التعارض بينهما من ذلك أن ترى أي النصين صريح في موضوع الاختلاف المُتَوهَّم من النصين
وأعيد السؤال: أي الحديثين أصرح في الدلالة على أول مخلوق أحديث عمران أم حديث أول ما خلق الله القلم؟ فأجابه السائل: حديث القلم
فقال الشيخ: هه، إذاً زال التعارض. ه
الهدى والنور (798/ 36: 50: 00)

قلت: الشيخ الألباني رحمه الله سلك في هذه المسألة مسلك الترجيح بالأصرح دلالة من ظاهر اللفظ وهذا ترجيح ضعيف إذ الأولى أن يكون الترجيح بالأقوى ثبوتاً وصحة في النسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهكذا كان أئمة السلف يرجحون الصحيح والأصح على الضعيف والأضعف منه
فحديث عمران بن حصين أصح وأقوى اسناداً من حديث عبادة الذي لا تخلو طرقه من ضعف في الاسناد وبالكاد يمكن قبوله من مجموع طرقه
أما حديث عمران بن حصين فهو صحيح بذاته ولا علة فيه

على أنه لا تعارض بين النصين كما سبق نقله عن أهل العلم وقد بيّنوا أن أولية القلم ليست مطلقة بل هي أولية بالنسبة لخلق السموات والأرض
فالتقدير والكتابة سابقة على خلق السموات والأرض أما الماء وخلق عرش الرحمن جل وعلا فوقه فهو سابق للقلم كما جاءت الأدلة بذلك

وأما ما ذكره الألباني فالكلام عليه من وجوه:

1– القول بخلق الماء والعرش قبل القلم منصوص عليه في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في حديث عمران بن حصين وحديث عبد الله بن عمرو السابق ذكرهما وليس هو مجرد اجتهاد واستنباط من ابن تيمية كما ذكر الشيخ.

2- القول بأسبقية خلق العرش على القلم هو مذهب الجمهور من العلماء والفقهاء وليس مذهبا لقلة من العلماء كابن تيمية وغيره كما قد يُفهم من كلام الشيخ رحمه الله.

3- القول بأن حديث عمران بن حصين ليس صريحاً في تعيين أول المخلوقات زعمٌ غير صحيح لأن النبي صلى الله عليه وسلم قاله مجيباً على سؤال السائل (وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ مَا كَانَ) فأجابه الأول فالأول كما هو مقتضى السؤال
وقال (وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء)
وفي رواية (ثم كتب في الذكر كل شيء)
فالقلم حين خُلق كان العرش على الماء كما في حديث عبد الله بن عمرو.

4- حديث عمران بن حصين وحديث عبد الله بن عمرو أصح اسناداً من حديث عبادة في خلق القلم فهذه الأحاديث الصحيحة مقدمة على حديث القلم إن صح اللجوء إلى الترجيح وإلا فالجمع أولى كما بينته.

الخلاصة:

قد ذكرت نصوص القرآن والسنة بعض المخلوقات الغيبية الموجودة قبل خلق السموات والأرض وأن أول هذه المخلوقات فيما أخبرنا الله به:
الماء ثم العرش ثم القلم

وذهب بعض المفسرين إلى ترتيب القلم قبل العرش
وهذا قول مرجوح وفقاً لدلالة النصوص من الكتاب والسنة
ومن زعم أن القلم كان قبل العرش والماء فقد أخطأ في الاستدلال ولم يستوعب كل الأدلة الواردة في الباب والله أعلم.

أخبار لا تصح في الباب

1- عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنه وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله عزوجل (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات) قال:
إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء ... الحديث. ه

تاريخ الطبري 39/1 والتوحيد لابن خزيمة 886/2 والأسماء والصفات للبيهقي 807
من طريق عمرو بن حماد عن أسباط بن نصر عن السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود
وأسباط والسدي ضعيفان.

2- عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن حُدُس عن عمه أبي رزين العقيلي قال:
قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء وما ثم خلق عرشه على الماء. ه

رواه أحمد (16188) وابن ماجه (182) والترمذي (3109) والطبري 246/15 وابن حبان (6140) وغيرهم
من طريق يعلى بن عطاء عن وكيع بن حدس والبعض يقول عدس
ووكيعٌ هذا فيه جهالة لم يرو عنه إلا يعلى ولم يوثقه الا ابن حبان
وقال الذهبي في الميزان لا يعرف وقال ابن القطان مجهول الحال وهو كما قالا
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (5320)

ومع ضعف اسناده فالحديث فيه نكارة
قال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص 323):

نحن نقول إن حديث أبي رزين هذا مختلف فيه وقد جاء من غير هذا الوجه بألفاظ تستشنع أيضا والنقلة له أعراب ووكيع بن حدس الذي روى عنه حديث حماد بن سلمة أيضا لا يعرف غير أنه قد تكلم في تفسير هذا الحديث أبو عبيد القاسم بن سلام حدثنا عنه أحمد بن سعيد اللحياني أنه قال العماء السحاب وهو كما ذكر في كلام العرب إن كان الحرف ممدودا وإن كان مقصورا كأنه كان في عمى فإنه أراد كان في عمى عن معرفة الناس كما تقول عميت عن هذا الأمر فأنا أعمى عنه عمى إذا أشكل عليك فلم تعرفه ولم تعرف جهته وكل شيء خفي عليك فهو في عمى عنك وأما قوله فوقه هواء وتحته هواء فإن قوما زادوا فيه (ما) فقالوا ما فوقه هواء وما تحته هواء استيحاشا من أن يكون فوقه هواء وتحته هواء ويكون بينهما والرواية هي الأولى والوحشة لا تزول بزيادة ما لأن فوق وتحت باقيان والله أعلم. ه

3- عن سعيد بن جبير قال سئل ابن عباس وكان عرشه على الماء على أي شيء كان الماء قال على متن الريح. ه

رواه عبد الرزاق في التفسير 1185 وفي المصنف 9089 والطبري 249/15 وابن أبي حاتم 10697 وغيرهم
وهو موقوف على ابن عباس وليس له حكم الرفع لاحتمال تلقيه من أهل الكتاب.

مناقشة ابن تيمية في حوادث لا أول لها وتفسيره لحديث عمران بن حصين

قد ذكرت مذاهب العلماء في أول المخلوقات أهو العرش أم الماء أم القلم
وبينت أن الظاهر من نصوص الشريعة أن أول المخلوقات الماء ثم العرش ثم القلم

وهذا فيما هو ظاهر من نصوص الكتاب والسنة وإلا فكل هذه المذكورات مخلوقات غيبية ليست محسوسة وإنما يؤمن بوجودها المؤمنون بخبر الله في كتابه وخبر نبيه في سنته

وللامام ابن تيمية مذهباً آخر وهو أن المخلوقات لا أول لها مطلقاً وإنما الأولية هي في هذا العالم المشهود الذي نعرفه
فالماء والعرش والقلم هي أول ما نعرفه من الخلق وليست هي أول الخلق
فالمخلوقات لا أول لها كما أنها لا نهاية لها
والله سبحانه ما زال ولم يزل خالقاً ولم يتوقف عن الخلق أبداً
ولم يكن معطلاً عن الخلق أبداً

وهذا المذهب معروف بحوادث لا أول لها
فكل مخلوق محدث له بداية ولكن كل مخلوق مسبوق بمخلوق غيره وهكذا ..
منذ الأزل وإلى الأبد لا بداية لخلقه ولا نهاية

ولا أعلم أحداً من علماء أهل السنة قبل ابن تيمية قال بهذا القول بل كانوا يعدون هذا من أقوال الفلاسفة أو الملحدة

قال القاضي أبو يعلى الحنبلي: والحوادث لها أول ابتُدئت فيه خلافاً للملحدة. ه
(المعتمد في أصول الدين ص40)

وأظن ابن تيمية قد تأثر بكلام ابن رشد الفليسوف فإنه تبنى هذا القول وانتصر له في كتبه لاسيما كتاب (تهافت التهافت) وكتاب (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال)

قال ابن رشد: ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة في الأنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين أعني غير منقطع وذلك أن قوله تعالى (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) يقتضي بظاهره أن وجوداً قبل هذا الوجود وهو العرش والماء وزماناً قبل هذا الزمان أعنى المقترن بصورة هذا الوجود الذي هو عدد حركة الفلك وقوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) يقتضي أيضاً بظاهره أن وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود وقوله تعالى (ثم أستوى إلى السماء وهي دخان) يقتضي بظاهره أن السموات خلقت من شيء.
فالمتكلمون ليسوا في قولهم أيضاً في العالم على ظاهر الشرع بل متأولون فإنه ليس في الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ولا يوجد هذا فيه نصاً أبداً فكيف بتصور

في تأويل المتكلمين في هذه الآيات أن الاجماع انعقد عليه والظاهر الذي قلناه من الشرع في وجود العالم قد قال به فرقة من الحكماء. ه
فصل المقال ص41-42

ومن نظر في كلام ابن تيمية (ت 728ه) ومناقشاته العقلية والفلسفية بصفة عامة واطلع على كلام ابن رشد (ت 595ه) يتجلى له تأثر الأول بالأخير وإن خالفه في مواضع
وإذا كنت من قراء ابن تيمية ثم اطلعت على كتب ابن رشد وتقريراته في الرد على الأشاعرة فستشعر كأنك تقرأ لابن تيمية في أسلوبه وبحثه ومناقشته للحجج واستطراده في الشرح والرد على المخالف

وقد انتصر ابن رشد لهذا المذهب وقال بأنه مذهب فرقة من الحكماء الفلاسفة

وانتصر له ابن تيمية وقال بأنه مذهب السلف !

والصحيح أنه مذهب فلسفي لا دليل عليه من الشرع ولا قائل به من السلف

والرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كان الله ولا شيء غيره)

فأثبت وجوده سبحانه وحده لا شريك له ولا شيء غيره ولا شيء معه

فالشارع نص على خلاف هذا المذهب

ونصوص السلف المنقولة عنهم في هذا الباب أيضاً على خلافه

ولا يُعلم في كلام الله ورسوله ولا في كلام أحد من الصحابة والتابعين ما يؤيد مذهب ابن تيمية والفلاسفة من وجود حوادث لا أول لها

وكل من قرأ كلام ابن تيمية في هذا المذهب وجده كلاماً نظرياً لا حظ للأدلة السمعية فيه

فعامة أبحاثه رحمه الله في هذه المسألة إما أن تكون تأصيلات نظرية ومقدمات منطقية أو تأويلات للأدلة السمعية التي يحتج بها عليه مخالفوه
ولم يأت هو رحمه الله بدليل صريح من القرآن أو من السنة يكون حجة له
وغاية ما أورده بعض مناصريه من الأدلة قوله تعالى في سورة البروج

(فعال لما يريد)
وقالوا هذا دليل على أن أفعال الله دائمة لا انقطاع لها لا في أولها ولا في آخرها !

وهذا تفسير منهم للآية وليس هو منطوق الآية
فمنطوق الآية أن الله تعالى فعال لما يريد
فإذا أراد شيئا فلا يعجزه فعله
وليس هو كالمخلوقين قد يريد شيئا ويعجز عن فعله
فالله تعالى قهرت ارادته جميع خلقه فلا يعجزه شئ ولا يغلبه شئ سبحانه إذا أراد شيئاً فعله وإذا لم يرده لم يفعله فهو يفعل ما يريد ولا يفعل ما لا يريد فإذا أراد الخلق خلقه وإذا لم يرده لم يخلقه

ويبقى السؤال قائماً: هل أراد الله حوادث لا أول لها ؟
هذا ما لا تجده في كتاب الله ولا صحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأعيد السؤال بصيغة أخرى: هل رب العالمين لا بداية لخلقه فهي منذ الأزل ؟
أم كان الله ولا شيء غيره ثم أوجد الخلق بعد أن لم يكن ؟

وقد سئل الألباني رحمه الله عن حوادث لا أول لها واستدلال البعض عليها بقوله تعالى "فعال لما يريد" فقال:

كل مسلم يعرف أن الله غير مجبور من غيره وإنما الغير قد يكون مجبورا منه فهو فعال لما يريد لكن أنا سؤالي هل هناك نص فيما علمت أو فيما قرأت يقرر هذا النص فلسفة حوادث لا أول لها ؟ الحقيقة أن ابن تيمية لما بحث الموضوع كان بحثه جرّ إليه جرّا في أثناء رده على الفلاسفة القائلين بقدم العالم لكن ينبغي على المسلم دائما وأبدا أن يكون مستحضرا في ذهنه دائما أيضا أنه وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف نحن كلمة حوادث لا أول لها ما نعرفها في تاريخ السلف إطلاقا هذا التعبير ما نعرفه لكن نعرف حديث أول ما خلق الله القلم وابن تيمية نفسه يتناقش في هذا الموضوع وأنت أرحتني من أن تقع في التناقض الذي وقع فيه ابن تيمية , ابن تيمية في رسالته المسماة بالرسالة العرشية يميل إلى أنه بعد ما يذكر الخلاف بين العلماء في تحديد أول مخلوق يميل إلى أن أول مخلوق هو العرش على ظاهر حديث عمران بن حصين إذا بالنسبة لما يتعلق بحوادث لا أول لها أصبح موضوع تحديد أول مخلوق ثانوي المهم أنه هناك أول المخلوق سواء كان القلم أو كان العرش فإذن بطل القول

بحوادث لا أول لها لكن إذا أردنا أن نوفق بين ظاهر حديث عمران وبين حديث القلم فحديث القلم كما قلنا آنفا أصرح في الدلالة على الأولية لكن إذا فرضنا إنسانا يظل يصر على أنه أول مخلوق هو العرش ما بنقعد نتطاحن معه لا أنت مصيب أنت مخطئ إلى آخره لأن البحث كله في موضوع حوادث لا أول لها فسواء كان أول مخلوق هو العرش أو كان القلم فالمهم أن مسألة حوادث لا أول لها بطلت لأننا اتفقنا أنه هناك أول مخلوق لكن اختلفنا ما هو أول مخلوق فمن قائل العرش ومن قائل القلم إذًن هذا موضوع ثاني فلا ينبغي إذًن أن نشغل أنفسنا بالبحث في حوادث لا أول لها لأن هذه لا تثبت أمام حديث عمران أو أمام حديث القلم لأن كلا من الحديثين يثبت أول مخلوق وانتهى الموضوع. ه
سلسلة الهدى والنور 798

وقال الألباني في موضع آخر:
ولقد أطال ابن تيمية رحمه الله الكلام في رده على الفلاسفة محاولاً إثبات حوادث لا أول لها وجاء في أثناء ذلك بما تحار فيه العقول ولا تقبله أكثر القلوب حتى اتهمه خصومه بأنه يقول بأن المخلوقات قديمة لا أول لها مع أنه يقول ويصرح بأن ما من مخلوق إلا وهو مسبوق بالعدم ولكنه مع ذلك يقول بتسلسل الحوادث إلى ما لا بداية له كما يقول هو وغيره بتسلسل الحوادث إلى ما لا نهاية فذلك القول منه غير مقبول بل هو مرفوض بهذا الحديث وكم كنا نود أن لا يلج ابن تيمية رحمه الله هذا المولج لأن الكلام فيه شبيه بالفلسفة وعلم الكلام الذي تعلمنا منه التحذير والتنفير منه ولكن صدق الإمام مالك رحمه الله حين قال: ما منا من أحد إلا رَدَّ ورُدَّ عليه إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وآله وسلم. ه
السلسلة الصحيحة 258/1

وهذا كلام سديد مفيد من الامام الألباني رحمه الله
وفيه الرد على من يستدل بالآية لينتصر لمسألة فلسفية كلامية ليس لها مستند من الشرع
وإن كان يظهر أن الألباني لم يطلع كثيراً على تأويلات ابن تيمية للأحاديث المذكورة فابن تيمية يعرف هذه الأحاديث وذكرها في غير موضع من كتبه وإنما تأولها لتوافق مذهبه ولا يُحتج بها عليه

وابن تيمية في هذه المسألة قد سلك مسلك التأويل بغرض التنزيه
وهذا المسلك بعينه لطالما حذر منه الامام ونهى عنه

وكم له من صولات وجولات في هذا الباب ولكن لا معصوم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولذلك سأقوم هنا بمناقشة أهم ما احتج به ابن تيمية بايجاز وهي في أغلبها كما ذكرت حجج تخلو من أي دليل شرعي
وسأقوم بسرد الحجة بنصها من كلام الامام ابن تيمية ثم أقوم بتلخيصها وتبسيطها للقارئ ثم مناقشتها والرد عليها من جنس ما استدل به والله المستعان

والامام ابن تيمية توسع في بحث هذه المسألة وناقشها في مواضع عديدة من كتبه ومن أهم المواضع التي بحث فيها هذه المسألة هي:
مجموع الفتاوى (18/210: 243)
الصفدية (2/87: 115)
منهاج السنة النبوية (1/176: 189)
درء تعارض العقل والنقل (2/344) وهذا الكتاب في مجمله يبحث المسألة وما في معناها

وأنا لن أطيل البحث بنقولات كثيرة ومطولة عن ابن تيمية فخطة البحث قائمة على الاختصار والايجاز وكذا لن أتعمق في منطق الفلاسفة ومقدمات أهل الكلام الجدلية فأصل البحث قائم على الاستدلال بالأدلة السمعية إذ المسألة من أمور الغيب التي لا تدرك بالاستنتاج العقلي ولا بالوهم والتخيل

وعامة المناقشة قائمة على أسلوب التفسير البسيط الموافق للفطرة وظاهر النص مبتعداً قدر الامكان عن المنهج الجدلي والفلسفي

أيضاً ينبغي التنبيه لبعض الكتب المعاصرة التي تبنت الانتصار لمذهب الامام ابن تيمية في هذه المسألة وهي كثيرة أذكر منها:
(دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية) عبد الله الغصن
(قدم العالم وتسلسل الحوادث) كاملة الكواري
(موقف ابن تيمية من الأشاعرة) عبد الرحمن المحمود وغيرها

وهذه الكتب في جملتها عبارة عن شرح وتلخيص لكلام ابن تيمية
فلم يستدلوا لصحة مذهبه بحجج مختلفة أو أدلة جديدة غير التي استدل بها الامام

وإنما هو الانتصار لمذهبه والانتصار لنفس حججه وأدلته وقلّ منهم من أتى بجديد !
فنقد كلام الامام هو نقد لكلام مناصريه والله الموفق.

الحجة الأولى:

قال الامام ابن تيمية رحمه الله:
إذا قيل: العالم حادث أم ليس بحادث؟ والمراد بالعالم في الاصطلاح هو كل ما سوى الله فإن هذه العبارة لها معني في الظاهر المعروف عند عامة الناس أهل الملل وغيرهم ولها معني في عرف المتكلمين وقد أحدث الملاحدة لها معني ثالثاً.

المعني الأول

فالذي يفهمه الناس من هذا الكلام أن كل ما سوى الله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن وأن الله وحده هو القديم الأزلي ليس معه شيء قديم تقدمه بل كل ما سواه كائن بعد أن لم يكن فهو المختص بالقدم كما اختص بالخلق والإبداع والإلهية والربوبية وكل ما سواه محدث مخلوق مربوب عبد له. وهذا المعني هو المعروف عن الأنبياء وأتباع من المسلمين واليهود والنصارى وهو مذهب أكثر الناس غير أهل الملل من الفلاسفة وغيرهم.

المعنى الثاني

والمعني الثاني أن يقال: لم يزل الله لا يفعل شيئاً ولا يتكلم بمشيئته ثم حدثت الحوادث من غير سبب يقتضي ذلك مثل أن يقال: إن كونه لم يزل متكلماً بمشيئته أو فاعلاً بمشيئته بل لم يزل قادراً هو ممتنع وإنه يمتنع وجود حوادث لا أول لها فهذا المعني هو الذي يعنيه أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة ومن أتبعهم بحدوث العالم وقد يحكونه عن أهل الملل وهو بهذا المعني لا يوجد لا في القرآن ولا غيره من كتب الأنبياء لا التوراة ولا غيرها ولا في حديث ثابت عن النبي صلي الله عليه وسلم ولا يعرف هذا عن أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

المعنى الثالث

والمعنى الثالث الذي أحدثه الملاحدة كابن سينا وأمثاله قالوا: نقول العالم محدث أي معلول لعلة قديمة أزلية أوجبته فلم يزل معها وسموا هذا الحدوث الذاتي وغيره الحدوث الزماني. والتعبير بلفظ الحدوث عن هذا المعني لا يعرف عن أحد من أهل اللغات لا العرب ولا غيرهم إلا من هؤلاء الذين ابتدعوا لهذا اللفظ هذا المعني والقول بأن العالم محدث بهذا المعني فقط ليس قول أحد من الأنبياء ولا أتباعهم ولا أمة من الأمم العظيمة

ولا طائفة من الطوائف المشهورة التي اشتهرت مقالاتها في عموم الناس بحيث كان أهل مدينة علي هذا القول إنما يقول هذا طوائف قليلة مغمورة في الناس. ه
درء تعارض العقل والنقل 125/1-126

وقال: وهؤلاء القائلون بقدم العالم اشتبه عليهم نوع التأثير بعين التأثير فلما رأوا أن الذات تستلزم كونه مؤثرا لامتناع حدوث ذلك لم يميزوا بين النوع والعين فظنوا أن هذا يقتضي قدم الأفلاك أو غيرها من أعيان العالم. وهذا خطأ قطعا فإن الذات تستلزم نوع التأثير لا عينه فإذا قدر أنها لم تزل فاعلة لشيء بعد شيء لم يكن شيء من مفعولاتها قديما بل كل ما سواها حادث كائن بعد أن لم يكن وإن كان فعلها من لوازم ذاتها. والذين قابلوا هؤلاء لما أرادوا أن يثبتوا حدوث كل ما سوى الله ظنوا أن هذا يتضمن أنه كان معطلا غير قادر على الفعل وأن كونه محدثا لا يصح إلا على هذا الوجه فهؤلاء أثبتوا التعطيل عن نوع الفعل وأولئك أثبتوا قدم عين الفعل وليس لهم حجة تدل على ذلك قط وإنما يدل على ما يذكرونه من الحجج على ثبوت النوع لا على ثبوت عين الفعل ولا عين المفعول ولو كان يقتضي دليلهم الصحيح قدم عين الفعل والمفعول لامتنع حدوث شيء من الحوادث وهو مخالف للمشهود. وحينئذ فالذي هو من لوازم ذاته نوع الفعل لا فعل معين ولا مفعول معين. ه
الصفدية 97/2

وقال: النوع أزلي بمعنى وجوده شيئا فشيئا فيكون الفعل المشروط به موجودا شيئا فشيئا لامتناع وجود المشروط بدون الشرط وإذا كان ذلك الفعل يوجد شيئا فشيئا كان المفعول كذلك بطريق الأولى لامتناع تقدم المفعول على فعله فلا يكون فعل دائم معين فلا يكون مفعول معين دائم. ه
الصفدية 144/2

وقال: وإن كان أفعاله دائمة شيئاً بعد شيء ليس فيها واحد قديم وكذلك مفعولاته بطريق الأولى فإن المفعول تابع للفعل فلا يكون في أفعاله ولا في مفعولاته شيء قديم وإن كانت دائمة لم تزل فإن دوام النوع وقدمه ليس مستلزماً قدم شيء من الأعيان بل ذلك مناقض لقدم شيء منها. ه
الصفدية 281/1

ثم قال عن هؤلاء القائلين بقدم العالم:

وإنما طمعوا في أهل الكلام المبتدعين الذين ذمهم السلف والأئمة لما اشتمل عليه كلامهم من الباطل شرعا وعقلا فإنهم خالفوا السمع والعقل وظنوا أن الرسل أخبرت بأن الباري كان معطلا لا يقدر أن يفعل ولا أن يتكلم ثم بعد هذا قدر أن يفعل وأن يتكلم فانتقل من عدم القدرة إلى القدرة بلا حدوث شيء وانتقل الشيء من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي بلا حدوث شيء ولزم أن يكون بين الباري وبين أول كلامه وفعله مدة لا نهاية لها وليس هناك مدة وأن يكون قبل الزمان زمان زمان إلى غير ذلك من الأمور التي ابتدعها المتكلمة الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم في الإسلام فجاء أولئك الملحدة فرأوا أن هذه أقوال فاسدة فظنوا أنهم إذا أفسدوها بدوام فاعلية الرب وأن ما جاز وجوده عنه وجب وجوده لزم من ذلك قدم هذا العالم ودوامه وأن الرب تعالى لم يحدث هذا العالم ولا يغيره ولا يقيم القيامة الكبرى إذ فعله واحد لا يتبدل. ه
الصفدية 2/98-99

ملخص الحجة الأولى والرد عليها:

1- المتكلمون افترضوا عالما لم يزل الله فيه لا يفعل شيئاً ولا يتكلم بمشيئته ثم حدثت الحوادث من غير سبب يقتضي ذلك.

قلت: الايمان بابتداء الحوادث لا يتعارض مع الايمان بالمعنى الأول الذي ذكره ابن تيمية من أن كل ما سوى الله مخلوق حادث فكل ما سوى الله محدث مخلوق بعينه ونوعه

وافتراض عالما ثانيا لم يزل الله فيه لا يفعل شيئاً لا أعلم أحداً من السلف نص عليه أو خاض فيه والمعتزلة وأهل الكلام لست هنا بصدد نقل أقوالهم أو الرد عليها وإن كان كثير من كلام ابن تيمية وحججه منصبة على مذهبهم وقولهم بامتناع حوادث لا أول لها على الله تعالى

وهو تأصيل يخالف نصوص الشرع وكمال قدرة الله وإرادته فلا يمتنع عليه شيء.

2- لا يوجد في القرآن ولا في غيره من كتب الأنبياء أن الله كونه لم يزل متكلماً بمشيئته أو فاعلاً بمشيئته بل لم يزل قادراً هو ممتنع وإنه يمتنع وجود حوادث لا أول لها هذا المعنى لا يوجد ولا يعرف عن أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

قلت: لا ريب أن الله تعالى لم يزل قادراً وفاعلاً إذا شاء متكلماً إذا شاء ولا يمتنع عليه شيء سبحانه ولكن ذلك لا يستلزم حوادث لا أول لها

فالله لم يزل متكلماً إذا شاء ولا يعني ذلك أنه لا ينفك عن الكلام أبداً

أو أنه يتكلم بلا انقطاع ؟!

هذا لا دليل عليه بل من كمال صفاته سبحانه أنه يتكلم إذا شاء ويفعل إذا شاء ويخلق إذا شاء قال تعالى (فعال لما يريد) (يخلق ما يشاء)

فتعلق فعله بارادته وخلقه بمشيئته فيثبت إذا أراده وينتفي إذا لم يرده ويُخلق إذا شاءه ولا يُخلق إذا لم يشأه ويُحدَث إذا أمر ولا يُحدَث إذا لم يأمر به

قال أبو بكر الاسماعيلي في اعتقاد أهل الحديث ص57:

ويقولون ما يقوله المسلمون بأسرهم (ما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون) كما قال تعالى {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} ه

ومن فهم هذا علم حقيقة الخلاف وموطن الزلل الذي وقع فيه ابن تيمية ومن وافقه وهو الخلط وعدم التفريق بين أزلية الصفات وبين حدوث الموصوف المتعلق بارادة الله جل وعلا

فالأول أزليٌ بأزلية الله والثاني محدث بمشيئته سبحانه

وذكر ابتداء الحوادث بعد أن لم تكن موجود في كلام الرسول وكلام السلف كما بينته في تعيين أول المخلوقات والحمد لله.

3- الذات تستلزم نوع التأثير فإذا قدر أنها لم تزل فاعلة لشيء بعد شيء لم يكن شيء من مفعولاتها قديما بل كل ما سواها حادث كائن بعد أن لم يكن وإن كان فعلها من لوازم ذاتها.

قلت: سبق التفريق بين الصفات التي هي أزلية ومن لوازم الذات وبين الموصوف المتعلق وجوده بالمشيئة والارادة فلا يجوز الخلط بينهما

قال الطحاوي في عقيدته:
مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيمًا قَبْلَ خَلْقِهِ لَمْ يَزْدَدْ بِكَوْنِهِمْ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُمْ مِنْ صِفَتِهِ وَكَمَا كَانَ بِصِفَاتِهِ أَزَلِيًّا كَذَلِكَ لَا يزال عليها أبديا ليس بعد خَلَقِ الْخَلْقَ اسْتَفَادَ اسْمَ الْخَالِقِ وَلَا بِإِحْدَاثِهِ البرية استفاد اسم الباري لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبَ وَمَعْنَى الْخَالِقِ ولا مخلوق وكما أنه محيي الموتى بعدما أَحْيَا اسْتَحَقَّ هَذَا الِاسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ كَذَلِكَ استحق اسم الخالق قبل إنشائهم ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَكُلُّ شيء إليه فَقِيرٌ وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البصير. ه

وهذا كلامٌ سُنِّي وردٌ على من لا يفرق بين الصفة وبين الموصوف
أو بين الصفات الذاتية لله تعالى وبين المحدثات التي هي تأثير هذه الصفات
وهو ظاهر في نفي حوادث لا أول لها
فقد أثبت ابتداءً أزلية الصفات ثم قال (لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبَ وَمَعْنَى الْخَالِقِ ولا مخلوق)
يعني أن الله متصف بصفة الخلق وليس ثَمَّ خلق يعني قبل الخلق وقبل إحداثه

والخلط بين الصفة وآثارها تأثر به ابن تيمية وأتباعه حتى إنهم يسعون لفرض تصورهم على آيات القرآن فيقولون في مثل قوله تعالى (وكان الله سميعا بصيرا)
هذا دليل على حوادث لا أول لها .. لماذا ؟!
لأن السلف فسَّروا (كان) أي لم يزل
وصفتي السمع والبصر لا تكون إلا بوجود مخلوقات تُسمع وتُبصر فقوله تعالى (وكان الله سميعا بصيرا) أي لم يزل يخلق ما يسمعه وما يبصره منذ الأزل !

فانظر كيف ربطوا بين الخالق والمخلوق وفسَّروا الآيات بلوازم تصوروها من عند أنفسهم وجعلوها حجة على من خالفهم والآيات القرآنية حجة عليهم
فالله تعالى يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد وله سبحانه صفات الكمال حدثت المحدثات أم لم تحدث فالكمال هو القدرة على الفعل لا عين الفعل

قال الامام البخاري في صحيحه (134/9):
بَابُ مَا جَاءَ فِي تَخْلِيقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَغَيْرِهَا مِنَ الخَلاَئِقِ وَهُوَ فِعْلُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَأَمْرُهُ فَالرَّبُّ بِصِفَاتِهِ وَفِعْلِهِ وَأَمْرِهِ وَكَلاَمِهِ وَهُوَ الخَالِقُ المُكَوِّنُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَمَا كَانَ بِفِعْلِهِ وَأَمْرِهِ وَتَخْلِيقِهِ وَتَكْوِينِهِ فَهُوَ مَفْعُولٌ مَخْلُوقٌ مُكَوَّنٌ. ه

قال الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الكلام:
وَسِيَاقُ الْمُصَنِّف يَقْتَضِي التَّفْرِقَةَ بَيْنَ الْفِعْلِ وَمَا يَنْشَأُ عَنِ الْفِعْلِ فَالْأَوَّلُ مِنْ صِفَةِ الْفَاعِلِ وَالْبَارِي غَيْرُ مَخْلُوقٍ فَصِفَاتُهُ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ وَأَمَّا مَفْعُولُهُ وَهُوَ مَا يَنْشَأُ عَنْ فِعْلِهِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ وَمِنْ ثَمَّ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ وَمَا كَانَ بِفِعْلِهِ وَأَمْرِهِ وَتَخْلِيقِهِ وَتَكْوِينِهِ فَهُوَ مَفْعُولٌ مَخْلُوقٌ...
ثم قال: ومسئلة التَّكْوِينِ مَشْهُورَةٌ بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَأَصْلُهَا أَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا هَلْ صِفَةُ الْفِعْلِ قَدِيمَةٌ أَوْ حَادِثَةٌ فَقَالَ جَمْعٌ مِنَ السَّلَفِ مِنْهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ هِيَ قَدِيمَةٌ وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُم بن كِلَابٍ وَالْأَشْعَرِيُّ هِيَ حَادِثَةٌ لِئَلَّا يَلْزَمَ أَنْ يَكُونَ الْمَخْلُوقُ قَدِيمًا وَأَجَابَ الْأَوَّلُ بِأَنَّهُ يُوجَدُ فِي الْأَزَلِ صِفَةُ الْخَلْقِ وَلَا مَخْلُوقَ وَأَجَابَ الْأَشْعَرِيُّ بِأَنَّهُ لَا يَكُونُ خَلْقٌ وَلَا مَخْلُوقٌ كَمَا لَا يَكُونُ ضَارِبٌ وَلَا مَضْرُوبٌ فَأَلْزَمُوهُ بِحُدُوثِ صِفَاتٍ فَيَلْزَمُ حُلُولُ الْحَوَادِثِ بِاللَّهِ فَأَجَابَ بِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَا تُحْدِثُ فِي الذَّاتِ شَيْئًا جَدِيدًا فَتَعَقَّبُوهُ بِأَنَّهُ يَلْزَمُ أَنْ لَا يُسَمَّى فِي الْأَزَلِ خَالِقًا وَلَا رَازِقًا وَكَلَامُ اللَّهِ قَدِيمٌ وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ فِيهِ الْخَالِقُ الرَّزَّاقُ فَانْفَصَلَ بَعْضُ الْأَشْعَرِيَّةِ بِأَنَّ إِطْلَاقَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ بِطَرِيقِ الْمَجَازِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِعَدَمِ التَّسْمِيَةِ عَدَمُهَا بِطَرِيقِ الْحَقِيقَةِ وَلَمْ يَرْتَضِ هَذَا بَعْضُهُمْ بَلْ قَالَ وَهُوَ الْمَنْقُولُ عَنِ الْأَشْعَرِيِّ نَفْسِهِ إِنَّ الْأَسَامِيَ جَارِيَةٌ مَجْرَى الْأَعْلَامِ وَالْعَلَمُ لَيْسَ بِحَقِيقَةٍ وَلَا مَجَازٍ فِي اللُّغَةِ وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ فَلَفْظُ الْخَالِقِ الرَّازِقِ صَادِقٌ عَلَيْهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْبَحْثُ إِنَّمَا هُوَ فِيهَا لَا فِي الْحَقِيقَةِ اللُّغَوِيَّةِ فَأَلْزَمُوهُ بِتَجْوِيزِ إِطْلَاقِ اسْمِ الْفَاعِلِ عَلَى مَنْ لَمْ يَقُمْ بِهِ الْفِعْلُ فَأَجَابَ أَنَّ الْإِطْلَاقَ هُنَا شَرْعِيٌّ لَا لُغَوِيٌّ انْتَهَى <u>وَتَصَرُّفُ الْبُخَارِيِّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يَقْتَضِي مُوَافَقَةَ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ وَالصَّائِرُ إِلَيْهِ يَسْلَمُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي مَسْأَلَةِ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ</u>. ه
(فتح الباري 439/13)

قلت: فانظر إلى تصرف الامام البخاري بالتفريق بين الصفة وبين الفعل
وأن هذا التصرف كما قال ابن حجر يقتضي موافقة القول بأن الله يتصف في الأزل بصفة الخلق ولا مخلوق وهو قول جمع من السلف وهذا على مذهبهم يقتضي رفض حوادث لا أول لها ولا يعرف لهم مخالف وبالله التوفيق.

4- يلزم من امتناع حوادث لا أول لها أن الباري كان معطلاً لا يقدر أن يفعل ولا أن يتكلم ثم بعد هذا قَدِر أن يفعل وأن يتكلم ولزم أن يكون بين الباري وبين أول كلامه وفعله مدة لا نهاية لها.

قلت: هذا الالزام ليس بلازم لأن التعطيل هو نفي الصفات وهنا يراد به نفي صفة الخلق عن الله وحاشاه سبحانه فعدم القدرة على الخلق هي التعطيل
أمّا القدرة على الخلق مع عدم ارادته فهذا لا يسمى تعطيلاً
فالله يخلق ما يشاء متى شاء إذا شاء
فلو لم يشأ أن يخلق الخلق ما خلقهم
فالصفة ثابتة وإن لم يحدث الموصوف والله تعالى متصفٌ بالخلق وليس ثَمَّ خلق فهو خالق بالقوة فإذا أحدث الخلقَ صار خالقاً بالفعل وليس هذا من التعطيل في شيء

وهذا التعطيل هو الذي نسبه ابن تيمية لمذهب المتكلمة من المعتزلة والأشاعرة
وأما أهل الحديث فليسوا كذلك
فمن أهل الكلام من يقول بامتناع تسلسل الحوادث على الله تعالى ومثل هذا القول لا يجوز على الله فهو مطلق القدرة والقوة والارادة والفعل والخلق سبحانه له الكمال في أسمائه وصفاته
قال تعالى (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)
فالذي بيده كل شيء وقادر على كل شيء لا يمتنع عليه شيء سبحانه

فالقول بامتناع التسلسل على الله يخالف النصوص الصريحة من القرآن الكريم في اطلاق القدرة والمشيئة لله تعالى
وأكثر ردود ابن تيمية هي على القائلين بمنع التسلسل من أهل الكلام

ومسألة امكانية أو امتناع حدوث التسلسل في الماضي من ناحية العقل والنظر مسألة طويلة الذيل والنقاش فيها فلسفي عقلي محض
والذي يهمني هنا أن الشرع قد أثبت التسلسل في المستقبل ولم يثبته في الماضي بل صرح بنفيه على لسان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في قوله (كان الله ولا شيء غيره)
فهذا التسلسل إن صح جوازه في الذهن فقد جاء الدليل السمعي بنفيه
والكلام هنا على نفي ثبوته في الشرع وليس في امتناعه أو إمكانية حدوثه

وابن تيمية تارة يقول بامكانية تسلسل الحوادث وينسبه إلى أئمة السلف وأهل الحديث كما في منهاج السنة (176/1)
وتارة يقول بوجوب التسلسل لا مجرد إمكانية حدوثه
كمثل قوله (فالذي هو من لوازم ذاته نوع الفعل لا فعل معين ولا مفعول معين) الصفدية 97/2
وقوله (مع العلم بأن الحي يتكلم ويفعل بمشيئته وقدرته وأن ذلك يوجب وجود كلام بعد كلام وفعل بعد فعل)
الفتاوى 228/18
وقال في الصفدية 50/2:
(فقد تبين أن مع القول بجواز حوادث لا أول لها بل مع القول بوجوب ذلك يمتنع قدم العالم أو شيء من العالم وظهر الفرق بين دوام الواجب بنفسه القديم الذي لا يحتاج إلى شيء وبين دوام فعله أو مفعوله وقدم ذلك فإن الأول سبحانه هو قديم بنفسه واجب غني وأما فعله فهو شيء بعد شيء)

وإيجاب التسلسل على الله باطل كالقول بامتناعه عليه لأنه يتعارض مع قوله تعالى (فعال لما يريد) وقوله (يفعل ما يشاء)
فالله تعالى يفعل ما يشاء ولا يمتنع عليه شيء ولا يجب عليه شيء سبحانه
كل شيء يدور بين إرادته وقدرته فالوجود بأكمله وكل ما خطر في الذهن حدوثه حدث أو لم يحدث كان أو لم يكن هو عند الله ممكن لا يجب ولا يمتنع

والالزام بدوام الخلق كثير في كلام ابن تيمية والقول بالوجوب هو ظاهر مذهبه
أما إمكانية التسلسل في الماضي فهي وإن كانت جائزة في الذهن لكنها ممتنعة في نصوص الشرع كما بينته

أما الالزام بالتعطيل فالتعطيل نقصٌ لا يجوز في حق الله سبحانه
ومحاولة الزام المخالف بسؤاله كيف كان الله قبل أن يخلق الخلق الزام بأمر غيبي لا يعلمه أحد من الطرفين
وكيف ذلك وهو أمر لم نشهده ولم يأتينا الوحي به !

فهذا سؤال محدث ولو سئلت لقلت الله أعلم بما كان ونكل علمه إليه
ولا نقول إلا ما أخبرنا الله به على لسان رسوله (كان الله ولاشئ غيره)

وطريقة الراسخين في العلم عدم الخوض فيما لم يخبرنا الله به عن نفسه
فلا يقال لَمَ ولا كيف
والسؤال بكيف في حق الله تعالى وصفاته هو سؤال محدث ذمه السلف وعابوه كثيراً

وقد اشتهر عن مالك رحمه الله قوله حين سئل عن صفة الاستواء قال:
المعنى معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وهذا الجواب تناقله العلماء وتلقوه بالقبول وعَمَّموه في كل الصفات والمعتقدات الغيبية
لا يُسئل عنها بكيف ولا يُبحث عن كيفيتها
وما أكثر قول أحمد بن حنبل في رسالته أصول السنة حين يذكر الصفات والمعتقدات الغيبية فيقول رحمه الله: لا يُقال لم ولا كيف.

فيا عجباً من السني السلفي الذي يؤمن بهذا ويحتج به ثم يُلزم غيره بقولٍ لا يلزمه
فيقول كيف كان الله وليس ثَمَّ خلق ؟ هل كان الله معطلاً عن الخلق ؟!
أتحسب يا أخي أن حجتك قوية ؟ أتحسب أن قد ألقمتنا حجراً ؟!
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كان الله ولا شيء غيره)
فإن قلت كيف كان قبل ؟ فيا أخي الكيف مجهول والسؤال عنه بدعة
قال تعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) وقال (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)
فالتزم بالنص ودع عنك شيئاً غاب عنك علمه واجتنب المحدثات يرحمك الله

فنثبت ما أثبته الله لنفسه وننفي ما نفاه الله عن نفسه
ونسكت عما سكت الله عنه ولم يخبرنا به ونقول: كان الله ولا شيء غيره
ولا نقول كيف كان حين كان ولا شيء غيره
قال تعالى (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء)

قال البخاري: يَعْنِي إِلَّا بِمَا بَيَّنَ.
(خلق أفعال العباد ص 33)

فلا نتكلم فيما لم نحط به علماً ولا نخوض فيما لم يبين لنا خبره والله هو العليم الحكيم

وقد انتصر ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية لقول ابن تيمية في تسلسل الحوادث وذلك بعد أن أثبت أن مذهب الطحاوي هو نفي التسلسل فقال:

قوله (يعني الطحاوي): لَيْسَ بعد خَلَقَ الْخَلْقَ اسْتَفَادَ اسْمَ الْخَالِقِ وَلَا بِإِحْدَاثِهِ الْبَرِيَّةَ اسْتَفَادَ اسْمَ الْبَارِي.
ش: ظَاهِرُ كَلَامِ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ يَمْنَعُ تَسَلْسُلَ الْحَوَادِثِ في الماضي ويأتي في كَلَامِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْنَعُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَهُوَ قَوْلُهُ وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ لَا تَفْنَيَانِ أَبَدًا وَلَا تَبِيدَانِ وَهَذَا مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ كَمَا تَقَدَّمَ وَلَا شَكَّ فِي فَسَادِ قَوْلِ مَنْ مَنَعَ ذَلِكَ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْجَهْمُ وَأَتْبَاعُهُ وَقَالَ بِفَنَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لِمَا يَأْتِي مِنَ الْأَدِلَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.
وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ بِجَوَازِ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا مِنَ الْقَائِلِينَ بِحَوَادِثَ لَا آخِرَ لَهَا فَأَظْهَرُ فِي الصِّحَّةِ مِنْ قَوْلِ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَزَلْ حَيًّا وَالْفِعْلُ مِنْ لَوَازِمِ الْحَيَاةِ فَلَمْ يَزَلْ فَاعِلًا لِمَا يُرِيدُ كَمَا وَصَفَ بِذَلِكَ نَفْسَهُ حَيْثُ يَقُولُ {ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}. ه
من شرح الطحاوية ط. دار السلام ص132

قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين في شرح الطحاوية بعد نقله لكثير من كلام ابن أبي العز:

والواجب على المسلم أن يكون معتقداً لما أخبر الله به من كونه هو الحي القيوم الذي لم يزل ولا يزال ومن كونه هو المتصف بالخلق وبالتصرف وبالتدبير لشئون العباد ويعتقد أيضاً أنه هو المتفرد بإيجادهم وحده ولم يكن هناك من أوجدهم غيره وكونه يعتقد أن قبلهم خلقاً غيرهم وقبل الخلق خلقاً وقبل الأولين أولين فهذا من الأمور الغيبية التي لم يطلعنا الله عليها

ونقول: الله أعلم بمن كان قبل ذلك وبأفعاله قبل ذلك إلا أننا نعتقد أنه موصوف بهذه الصفات وإن لم تظهر آثارها كما ذكر في المتن أنه ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بعد وجود من يرزقهم استفاد اسم الرازق بل اسمه الخالق قبل أن يبدأ الخلق

واسمه الرازق قبل أن يوجد الخلق الذين يرزقهم لأنه خالق بالقوة قبل أن يخلق وإن لم يكن خالقاً بالفعل
ونتوقف عن تسلسل الحوادث في الماضي ونقول الأمر غيب ولم يخبرنا الله تعالى بشيء من ذلك وليس لنا التدخل في هذه الأمور لأنها من الأمور التي لا يضر جهلها ولا يفيد علمها وقد توقع في شيء من الحيرة ومن الاضطراب والمسلم عليه أن يقتصر على ما فيه فائدة له في العقيدة وأن يعتقد ما ينفعه وما يكون دافعاً له إلى معرفة ربه بأسمائه وبصفاته وإلى التقرب إلى الله تعالى بموجب تلك الأسماء. ه
من شرح الطحاوية لابن جبرين وهي دروس صوتية نقلته من التفريغ الصوتي في الشاملة 26/11

قلت: توقف الشيخ الجبرين في تسلسل الحوادث في الماضي وكذا الكلام في أمور الغيب التي ليس عليها دليل من السمع
وقد أحسن في هذا رحمه الله والتزم سبيل السلف في الامساك عن الكلام فيما لم يخبرنا الله به

وقوله (ولم يخبرنا الله تعالى بشيء) صحيح فيما يتعلق بقوله (الله أعلم بمن كان قبل ذلك وبأفعاله قبل ذلك)
أما اطلاق القول بالتسلسل في الماضي فقد أخبرنا الله بامتناعه في قول النبي صلى الله عليه وسلم (كان الله ولا شيء غيره)

وابن تيمية أكثر من الرد على أهل الكلام الذين يقولون بامتناع حوادث لا أول لها وأنه يمتنع على الله مثل هذا التسلسل
وقد أصاب في بعض ردوده لأن نسبة الامتناع في حق الله مخالفة لصفات الكمال والقدرة والارادة وما يقال في رد الامتناع في حق الله يقال في رد القول بالوجوب على الله
والله سبحانه لا يمتنع عليه حوادث لا أول لها ولا يمتنع عليه حوادث لها أول

فالله على كل شيء قدير يخلق ما يشاء إذا شاء كيفما شاء وقتما شاء
إذا أراد الخلق أوجده وإذا لم يرده لم يوجده ولم يحدثه جملة وتفصيلاً جنساً ونوعاً وأفراداً منذ الأزل وإلى الأبد وما بينهما
لا ينقص ذلك من كمال صفاته شيء سبحانه
فلا يمتنع عليه شيء ولا يعجزه شيء ليس كمثله شيء وهو السميع البصير

وهذا الالزام الذي يذكره ابن تيمية هو من حجج الفلاسفة:

قال الشيخ محمد عبده في التعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية ص258:
وقد استشهد الحكماء على قدم الممكنات بدليل نقلي وهو ما ذم الله به اليهود (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان) وبيانه: أنه لو قيل بحدوث العالم فقد قيل بأنه الحق في أزليته لم يزل معطلاً عن الفيض والجود أزمنة غير متناهية لا ابتداء لها ثم أخذ يعطي الوجود ومعلوم أنه على فرض أنه لم يزل خلاقاً إلى الأبد فكل ما خلقه فهو متناه ونسبة المتناهي إلى غير المتناهي كَلا نسبة وذلك جلي التصور فنسبة إعطاء الحق للوجود إلى منعه عن كل موجود ليست بشيء وإن هذا إلا غل اليد حيث أن الإعطاء ليس بشيء يذكر في جانب المنع. ه

قلت: هذا الالزام غير صحيح لأن التعطيل عجزٌ لا يجوز وصف الله به
أما القدرة على الخلق مع عدم الارادة فلا ينافي كمال صفاته

وتتمة الآية ترد عليهم قال الله (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ)
فتعلق الانفاق بمشيئته كسائر أفعاله سبحانه
فالله متصفٌ بصفات الخلق والرزق وليس ثم خلق يخلقهم أو يرزقهم
وهو الكريم الجواد بذاته سبحانه وحاشاه من وصف الغل

وما استدلوا به وأطلقوا القول فيه غير وارد هنا
لأن الغل والشح المذكور في الآية صفة متعلقة بموجودين وعلاقة بين طرفين
فالله كريم مع خلقه وليس شحيحاً عليهم
فإذا لم يكن ثم خلق فليس ثم شح أو بخل
فالله إذا أراد الخلق خلقه وإذا لم يرده لم يخلقه
ولا يقال إنه لم يخلق لشح أو بخل !
فهذا لا يتصور في حق من هو معروف بصفات الكمال والكرم والجود

وفي حياتنا الدنيا نرى الرجل النبيل إذا لم يرغب في الانجاب لا يقال عليه شحيح أو بخيل فربما له أسباب أخرى لكن إذا أنجب ولم ينفق استحق وصف الشح والبخل ولله المثل الأعلى

وقد لفت نظري ما كتبه أحد الإخوة في ملتقى أهل الحديث محاولاً إيراد نفس حجتهم عليهم فقال:
الخلق والاحياء والاماتة صفات كمال لله فهل إذا مر زمان لا يميت الله فيه يكون معطلاً عن صفة الإماتة ويكون فاقداً للكمال ؟
ويوم القيامة وبعد ذبح الموت سيقع زماناً لا يميت الله فيه أفيكون معطلاً عن صفة الاماتة ؟ حاشاه سبحانه
وكذلك فقل في صفة الخالقية: إذا مر زمان والله عز وجل لا يخلق فيه لا يكون معطلاً عن صفة الخالقية ولا يكون فاقداً للكمال
ولا فرق بين كون هذا الزمان من طرف الأزل أو الأبد. ه
(ملتقى أهل الحديث- موضوع إشكال في مسألة تسلسل الحوادث بتصرف)

وقد يقال لهم: الزمن مخلوق ومحدث وله بداية ؟
فإن قالوا: نعم الزمن مخلوق ومحدث وكل حادث له بداية فالزمن له بداية
فيقال لهم: وهل يوجد حوادث لا يجري عليها الزمن ؟!
فان قيل نعم فما هي ؟ وأين هي ؟ وأنَّى اثبات وجودها أو حدوثها ؟!
وإن قيل كل الحوادث يجري عليها الزمن والزمن له بداية فالحوادث لها بداية ولابد

والقول بلزوم التعطيل مبني على افتراض غير مُسَلَّم:

فمن أين لنا أن هناك زمان قبل الخلق ؟

والله سبحانه وتعالى لا يجري عليه الزمان

فلا يصح أن يقال: يلزم من ذلك وجود زمان لا يخلق الله فيه !

لأن الله لا يجري عليه الزمان أما مخلوقاته فيجري عليها الزمان

وهل يمكن اثبات وجود الزمان وجريانه قبل وجود الخلائق ؟!

قال ابن جرير الطبري: هو الواحد الذي كان قبل كل شيء وهو الكائن بعد كل شيء والأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء وأنه كان ولا وقت ولا زمان ولا ليل ولا نهار ولا ظلمة ولا نور إلا نور وجهه الكريم ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا نجوم

وأن كل شيء سواه محدث مدبر مصنوع انفرد بخلق جميعه بغير شريك ولا معين ولا ظهير سبحانه من قادر قاهر. ه
تاريخ الطبري 30/1

وأعجبتني هنا كلمة قالها عالم الفيزياء الشهير د. ستيفن هوكنج وهو يستعرض أقوال الفلاسفة القائلين بأن لو كان الكون بلا بداية فستكون هناك فترة زمان لا نهائية قبل أي حدث
ولو كان للكون بداية فإنه ستكون هناك فترة زمان لا نهائية قبله

قال د. هوكنج: والحقيقة أن القضيتين كلتاهما تأسس على افتراض لم ينطق به بأن الزمان يستمر إلى الوراء حتى الأزل سواء كان الكون قد وجد أم لم يوجد دائماً
وكما سوف نرى فإن مفهوم الزمان لا معنى له قبل بدء الكون ..
وقد أوضح القديس أوغسطين بأن الزمان هو خاصية للكون الذي خلقه الرب وأن الزمان لم يكن يوجد قبل بدء الكون. ه
تاريخ موجز للزمان ص٣٢ بتصرف

والمعروف حاليا عند علماء فيزياء الكون أن الزمان تجري عليه الكثير من صفات المكان فهو قابل للتغير والتشكل والانحناء والالتواء والتمدد والانكماش والوجود والفناء أيضاً

وكثيراً ما يستخدمون مصطلح (الزمكان) وهو عبارة عن دمج للمفهومين معاً باعتبار أن الزمان هو البعد الرابع للمكان وأن الزمان هو قياس التغير الذي يحصل داخل ما نعرفه بالمكان.

يعني إذا لم يوجد المكان فلا يوجد الزمان

هذا بحسب ما توصل إليه علماء الفيزياء من خلال دراسة الكون ورصد ظواهره

ولا يوجد في الشريعة ما يخالفه

وعليه فقول ابن تيمية (أن الله مر عليه زمان معطلاً عن الخلق) قول متناقض وغير منطقي

إذ بحسب ما توصل إليه العلم ليس هناك زمان قبل خلق المكان

فالزمن كان مع بدء الخلق وليس أزلياً

وكيف يكون أزلياً والأزلية في حقيقتها هي سلب الزمن فكيف يوصف بها ؟!

ويزداد هذا القول تناقضاً إذا وصفنا به الاله الخالق

فالله سبحانه قبل الزمن ولا يجري عليه الزمن

فلا يحده مكان ولا يجري عليه الزمان سبحانه

واعتبار جريان الزمن في حق الله من التشبيه المذموم بين الخالق والمخلوق

فتحصل مما سبق أن الزام ابن تيمية بوصف التعطيل في حق الله غير صحيح من وجوه:

1- أنه الزام بأمر غيبي لم نحط به علماً

2- وصف التعطيل نقص أما عدم الخلق مع القدرة فهو كمال إذ فعل الخلق متعلق بالمشيئة أما صفة الخلق فهي ذاتية في حق الله فالله هو الخالق ولا مخلوق

3- الله قبل الزمان والمكان فلا يجري عليه الزمان ولا يحويه المكان

4- الزمان كان مع بدء الخلق وليس أزلياً فإذا لم يوجد المكان فلا يوجد الزمان

5- مذهب السلف ترك السؤال بكيف فيم لم يخبرنا الله به.

الحجة الثانية:

قال ابن تيمية في شرح حديث عمران بن حصين في معرض الرد على من يحتج به على أولية المخلوقات:

وأما كون الفاعل لم يزل يفعل فعلا بعد فعل فهذا من كمال الفاعل فإذا كان الفاعل حيا وقيل: إن الحياة مستلزمة الفعل والحركة كما قال ذلك أئمة أهل الحديث كالبخاري والدارمي وغيرهما وأنه لم يزل متكلما إذا شاء وبما شاء ونحو ذلك كما قاله ابن المبارك وأحمد وغيرهما من أئمة أهل الحديث والسنة: كان كونه متكلما أو فاعلا من لوازم حياته وحياته لازمة له فلم يزل متكلما فعالا مع العلم بأن الحي يتكلم ويفعل بمشيئته وقدرته وأن ذلك يوجب وجود كلام بعد كلام وفعل بعد فعل فالفاعل يتقدم على كل فعل من أفعاله وذلك يوجب أن كل ما سواه محدث مخلوق ولا نقول: إنه كان في وقت من الأوقات ولا قدرة حتى خلق له قدرة والذي ليس له قدرة هو عاجز ولكن نقول: لم يزل الله عالما قادرا مالكا لا شبه له ولا كيف. فليس مع الله شيء من مفعولاته قديم معه. لا بل هو خالق كل شيء وكل ما سواه مخلوق له وكل مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن وإن قدر إنه لم يزل خالقا فعالا. وإذا قيل: إن الخلق صفة كمال؛ لقوله تعالى {أفمن يخلق كمن لا يخلق} أمكن أن تكون خالقيته دائمة وكل مخلوق له محدث مسبوق بالعدم وليس مع الله شيء قديم؟ وهذا أبلغ في الكمال من أن يكون معطلا غير قادر على الفعل ثم يصير قادرا والفعل ممكنا له بلا سبب. وأما جعل المفعول المعين مقارنا له أزلا وأبدا فهذا في الحقيقة تعطيل لخلقه وفعله فإن كون الفاعل مقارنا لمفعوله أزلا وأبدا مخالف لصريح المعقول. ه
مجموع الفتاوى 227/18

ثم قال: الوجه الخامس عشر:
أن الإقرار بأن الله لم يزل يفعل ما يشاء ويتكلم بما يشاء هو وصف الكمال الذي يليق به وما سوى ذلك نقص يجب نفيه عنه فإن كونه لم يكن قادرا ثم صار قادرا على الكلام أو الفعل مع أنه وصف له فإنه يقتضي أنه كان ناقصا عن صفة القدرة التي هي من لوازم ذاته والتي هي من أظهر صفات الكمال فهو ممتنع في العقل بالبرهان اليقيني فإنه إذا لم يكن قادرا ثم صار قادرا فلا بد من أمر جعله قادرا بعد أن لم يكن فإذا لم يكن هناك إلا العدم المحض امتنع أن يصير قادرا بعد أن لم يكن وكذلك يمتنع أن يصير عالما بعد أن لم

يكن قبل هذا بخلاف الإنسان فإنه كان غير عالم ولا قادر ثم جعله غيره عالما قادرا وكذلك إذا قالوا: كان غير متكلم ثم صار متكلما. وهذا مما أورده الإمام أحمد على الجهمية إذ جعلوه كان غير متكلم ثم صار متكلما. قالوا: كالإنسان قال: فقد جمعتم بين تشبيه وكفر. وقد حكيت ألفاظه في غير هذا الموضع. ه
الفتاوى 237/18

ثم قال: وأيضا فإنهم يزعمون أنه يمتنع في الأزل والأزل ليس شيئا محدودا يقف عنده العقل بل ما من غاية ينتهي إليها تقدير الفعل إلا والأزل قبل ذلك بلا غاية محدودة حتى لو فرض وجود مدائن أضعاف مدائن الأرض في كل مدينة من الخردل ما يملؤها وقدر إنه كلما مضت ألف ألف سنة فنيت خردلة وما من وقت صدر فيه الفعل إلا وقد كان قبل ذلك ممكنا وإذا كان ممكنا فما الموجب لتخصيص حال الفعل بالخلق دون ما قبل ذلك فيما لا يتناهى؟ وأيضا فالأزل معناه عدم الأولية ليس الأزل شيئا محدودا فقولنا: لم يزل قادرا بمنزلة قولنا: هو قادر دائما وكونه قادرا وصف دائم لا ابتداء له فكذلك إذا قيل: لم يزل متكلما إذا شاء ولم يزل يفعل ما شاء يقتضي دوام كونه متكلما وفاعلا بمشيئته وقدرته وإذا ظن الظان أن هذا يقتضي قدم شيء معه كان من فساد تصوره فإنه إذا كان خالق كل شيء فكل ما سواه مخلوق مسبوق بالعدم فليس معه شيء قديم بقدمه وإذا قيل: لم يزل يخلق كان معناه لم يزل يخلق مخلوقا بعد مخلوق كما لا يزال في الأبد يخلق مخلوقا بعد مخلوق ننفي ما ننفيه من الحوادث والحركات شيئا بعد شيء. وليس في ذلك إلا وصفه بدوام الفعل لا بأن معه مفعولا من المفعولات بعينه وإن قدر أن نوعها لم يزل معه فهذه المعية لم ينفها شرع ولا عقل بل هي من كماله قال تعالى {أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون} والخلق لا يزالون معه وليس في كونهم لا يزالون معه في المستقبل ما ينافي كماله وبين الأزل في المستقبل مع أنه في الماضي حدث بعد أن لم يكن إذ كان كل مخلوق فله ابتداء ولا نجزم أن يكون له انتهاء. ه
الفتاوى 238/18: 240

ملخص الحجة الثانية والرد عليها:

1- أن الله لم يزل يفعل ما يشاء ويتكلم بما يشاء وهذا هو وصف الكمال الذي يليق به وما سوى ذلك نقص يجب نفيه عنه وإذا قيل لم يزل متكلما إذا شاء ولم يزل يفعل ما شاء يقتضي دوام كونه متكلما وفاعلا بمشيئته وقدرته وإذا قيل لم يزل يخلق كان معناه لم يزل يخلق مخلوقا بعد مخلوق.

قلت: هذا الكلام في مجمله صحيح ولكن المشكلة هي عدم التفريق بين الصفة الأزلية وبين الموصوف المتعلق وجوده بالمشيئة والارادة
ففرق بين لم يزل يفعل ولم يزل يفعل ما يشاء أو إذا شاء

فإذا قيل لم يزل يخلق فهذا يقتضي دوام كونه خالقاً
أما إذا قيل لم يزل يخلق ما يشاء أو متى شاء أو إذا شاء فالأمر يختلف ولا يقتضي الدوام بل يتعلق حينئذ بالمشيئة مع ثبوت الصفة في الأزل

وقد اختلفت الحنابلة في هذه المسألة على قولين
نقلهما ابن تيمية في الفتاوى 158/6 قال:
قال أبو بكر عبد العزيز في الجزء الأول من كتاب السنة في المقنع لما سألوه إنكم إذا قلتم لم يزل متكلما كان ذلك عبثا فقال:
لأصحابنا قولان:
أحدهما: لم يزل متكلما كالعلم لأن ضد الكلام الخرس كما أن ضد العلم الجهل.

قال: ومن أصحابنا من قال قد أثبت لنفسه أنه خالق ولم يجز أن يكون خالقا في كل حال بل قلنا إنه خالق في وقت إرادته أن يخلق وإن لم يكن خالقا في كل حال ولم يبطل أن يكون خالقا كذلك وإن لم يكن متكلما في كل حال لم يبطل أن يكون متكلما بل هو متكلم خالق وإن لم يكن خالقا في كل حال ولا متكلما في كل حال. ه

قلت: هذا القول الأول لفقهاء الحنابلة هو الأصل الذي بنى عليه ابن تيمية مذهبه في حوادث لا أول لها وهو قول ضعيف لضعف قياس صفة الكلام على صفة العلم فصفة الكلام تتعلق بالمشيئة بخلاف صفة العلم فلا تتعلق بالمشيئة

فلا يصح أن يقال (لم يزل الله عالماً إذا شاء) فالعلم والحياة من صفات الله تعالى التي لا تتعلق بالمشيئة بخلاف صفة الكلام وصفة الخلق فالعلم ضده الجهل أما الكلام فضده الخرس لآفة وضده السكوت لغير آفة وحاشا الله من النقص والآفة

والقول الثاني الذي نقله عن بعض الحنابلة هو الصحيح الموافق للأدلة الصريحة في تعليق أفعال الله تعالى بمشيئته وارادته نحو قوله تعالى (فعال لما يريد) (يفعل ما يريد)

(يفعل ما يشاء) (يخلق ما يشاء) وغيرها من الآيات الدالة على المشيئة والارادة المستلزمة للقدرة والاختيار

وانظر رحمك الله كيف قاس الفقهاء تعلق صفة الكلام بالارادة على تعلق صفة الخلق بها فجعلوا كلامهم في صفة الخلق هو الأصل الذي قاسوا عليه صفة الكلام وذلك لأنها في صفة الخلق أوضح وأظهر والحمد لله

قال الشيخ عبد الله بن جبرين معلقاً على قول الطحاوي الذي نقلته سابقا (ما زال بصفاته قديما قبل خلقه) قال:

أي أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفاً بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها لأن صفاته سبحانه صفات كمال وفقدها صفة نقص ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفاً بضده ولا يرد على هذه صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصوير والإحياء الإماتة والقبض والبسط والطي والاستواء والإتيان والمجيء والنزول والغضب والرضا ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ولكن أصل معناه معلوم لنا كما قال الإمام مالك رضي الله عنه لما سئل عن قوله تعالى {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول.
وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت كما في حديث الشفاعة: (إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله) لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلماً بالأمس لا يقال إنه حدث له الكلام ولو كان غير متكلم لآفة كالصغر والخرس ثم تكلم يقال حدث له الكلام فالساكت لغير آفة يسمى متكلماً بالقوة بمعنى أنه يتكلم إذا شاء وفي حال تكلمه يسمى متكلماً بالفعل وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل ولا يخرج عن كونه كاتباً في حال عدم مباشرته الكتابة. ه
من شرح الطحاوية لابن جبرين النسخة المفرغة للشاملة 15/11

2- أن هذه الحوادث وإن قدّر أن نوعها لم يزل معه فهذه المعية لم ينفها شرع ولا عقل بل هي من كماله قال تعالى {أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون} والخلق لا يزالون معه وليس في كونهم لا يزالون معه في المستقبل ما ينافي كماله وبين الأزل في

المستقبل مع أنه في الماضي حدث بعد أن لم يكن إذ كان كل مخلوق فله ابتداء ولا نجزم أن يكون له انتهاء.

قلت: هذه المعية قد جاء نفيها في الشرع بقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم (كان الله ولا شيء غيره) ولا يمتنع نفيها بالعقل أيضاً إذا فهمنا الفرق بين أزلية الصفات وحدوث الموصوف المتعلق بالمشيئة كما سبق على التفصيل
والمقصود بالانتفاء العقلي هنا انتفاء الوجوب العقلي وهو الثّابت الذي لا يقبل الانتفاء لذاته أو هو الذي لا يتصور في العقل عدمه فالمراد نفي الوجوب الشرعي والعقلي في هذه المسألة أما الجواز العقلي وإمكانية الحدوث فيمكن تصوره في الذهن ولكن لا دليل على وجوده في الحقيقة

وقياس معية الماضي على معية الحاضر والمستقبل غير صحيح هنا لأن الكلام ليس على مطلق المعية ولكن على أزلية الوجود والاستمرار وقدم النوع الذي ليس عليه دليل من الشرع بل الشرع يخالفه والله أعلم.

الحجة الثالثة:

قال ابن تيمية: اتَّفَقَتِ الطَّوَائِفُ كُلُّهَا عَلَى أَنَّ الْمُعَيَّنَ الْقَدِيمَ الْأَزَلِيَّ لَا يَكُونُ مَقْدُورًا مُرَادًا بِخِلَافِ مَا كَانَ نَوْعُهُ لَمْ يَزَلْ مَوْجُودًا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ فَهَذَا مِمَّا يَقُولُ أَئِمَّةُ السَّلَفِ وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ إنَّهُ يَكُونُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ جَمَاهِيرُ الْفَلَاسِفَةِ الْأَسَاطِينُ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِحُدُوثِ الْأَفْلَاكِ وَغَيْرِهَا وَأَرِسْطُو وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِقِدَمِهَا فَأَئِمَّةُ أَهْلِ الْمِلَلِ وَأَئِمَّةُ الْفَلَاسِفَةِ يَقُولُونَ إنَّ الْأَفْلَاكَ مُحْدَثَةٌ كَائِنَةٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ مَعَ قَوْلِهِمْ إنَّهُ لَمْ يَزَلِ النَّوْعُ الْمَقْدُورُ الْمُرَادُ مَوْجُودًا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ
وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يَقُولُونَ مَا كَانَ مَقْدُورًا مُرَادًا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لَمْ يَزَلْ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بِمَنْعِ ذَلِكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا. ه

وقال: وَإِنَّمَا النِّزَاعُ فِي نَوْعِ الْحَوَادِثِ هَلْ يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَالْمَاضِي أَوْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَقَطْ أَوْ لَا يُمْكِنُ دَوَامُهَا لَا فِي الْمَاضِي وَلَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ مَعْرُوفَةٍ عِنْدَ أَهْلِ النَّظَرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ أَضْعَفُهَا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: لَا يُمْكِنُ دَوَامُهَا لَا فِي الْمَاضِي وَلَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ كَقَوْلِ جَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ وَأَبِي الْهُذَيْلِ الْعَلَّافِ وَثَانِيهَا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ دُونَ الْمَاضِي كَقَوْلِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ مَنَ الْجَهْمِيَّةِ

وَالْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْكَرَّامِيَّةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ وَالشِّيعَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَغَيْرِهِمْ وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ كَمَا يَقُولُهُ أَئِمَّةُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَأَئِمَّةُ الْفَلَاسِفَةِ وَغَيْرِهِمْ. ه

منهاج السنة 166/1و176

وقال: أما أكثر أهل الحديث ومن وافقهم فإنهم لا يجعلون النوع حادثاً بل قديماً ويفرقون بين حدوث النوع وحدوث الفرد من أفراده كما يفرق جمهور العقلاء بين دوام النوع ودوام الواحد من أعيانه فإن نعيم أهل الجنة يدوم نوعه ولا يدوم كل واحد واحد من الأعيان الفانية ومن الأعيان الحادثة ما لا يفنى بعد حدوثه كأرواح الآدميين فإنها مبدعة كانت بعد أن لم تكن ومع هذا فهي باقية دائمة. ه

درء تعارض العقل والنقل 148/2

وقال: وأما كون الفاعل لم يزل يفعل فعلا بعد فعل فهذا من كمال الفاعل فإذا كان الفاعل حيا وقيل: إن الحياة مستلزمة الفعل والحركة كما قال ذلك أئمة أهل الحديث كالبخاري والدارمي وغيرهما وأنه لم يزل متكلما إذا شاء وبما شاء ونحو ذلك كما قاله ابن المبارك وأحمد وغيرهما من أئمة أهل الحديث والسنة. ه

الفتاوى 227/18

قلت: نسب الامام مسألة حوادث لا أول لها إلى الفلاسفة وأئمة السلف
وقد أصاب في نسبة هذا القول إلى أئمة الفلاسفة
وأما نسبتها إلى السلف وأئمة أهل الحديث فهذه دعوى لا حقيقة تحتها

فلا يوجد نص عن إمام من السلف أهل الحديث يقول بحوادث لا أول لها أو بأن المخلوقات لا بداية لها أو ليس لها أول باطلاق وإنما الأولية فقط في العالم المشهود أو نحو ذلك من العبارات الصريحة الدالة على المقصود

بل ما ورد عنهم يخالف ما نسبه إليهم:

قال ابن عباس: إن الله تعالى استوى على عرشه قبل أن يخلق شيئاً. ه

وقال مجاهد في تفسير قوله تعالى (وكان عرشه على الماء): قبل أن يخلق شيئاً. ه

وقال قتادة: ينبئكم ربكم تبارك وتعالى كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض. ه

وقال جبير بن نفير في خلق العرش والقلم: قبل أن يبدأ خلق شيء من الخلق. ه

وقال معمر بن راشد: الله خلق كل شيء وهو قبل كل شيء وهو كائن بعد كل شيء. ه
جامع معمر 20441

وقال أحمد بن حنبل في قضية خلق القرآن: قول ابن عباس حجة عليهم أول ما خلق الله القلم وكلام الله قبل أن يخلق القلم. ه
رواه ابن بطة 22/6 والآجري 510/1

ترى مثل هذا الالزام يخرج من رجل يرى أزلية الخلق بالنوع أو يخطر بباله !

وفي الرد على الجهمية والزنادقة المنسوب لأحمد بن حنبل ص140 قال:
نحن نقول قد كان الله ولا شيء. ه

وكل هذا ظاهر في الدلالة على المقصود وأن مسألة حوادث لا أول لها والتفريق بين المشهود وغير المشهود لم تخطر ببال السلف فضلاً عن أن يقولوا بها !

وقال البخاري: (كتاب بدء الخلق)

وقال ابن أبي عاصم في السنة 48/1: بَابُ ذِكْرِ الْقَلَمِ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا جَرَى بِهِ الْقَلَمُ. ه

وقال أبو الشيخ في العظمة 1358/4: صِفَةُ ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ. ه

وقال ابن منده في التوحيد ص82: ذِكْرُ مَعْرِفَةِ بَدْءِ الْخَلْقِ ..
ثم ذكر حديث عمران بن حصين.

وقال الطحاوي: (ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه)
وقال (لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبَ وَمَعْنَى الْخَالِقِ ولا مخلوق)

وقال اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة 245/2:
وَالْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَنْفَدُ وَتَفْنَى وَكَلِمَاتُ اللَّهِ لَا تَفْنَى. ه

وقال الطبري: (القول في ابتداء الخلق ما كان أوله)
ثم حكى أقوال السلف ومذاهبهم في تعيين أول المخلوقات. (تاريخ الطبري 31/1)

ولم يحك الطبري ولا غيره عن أحد من أئمة السلف القول بأن المخلوقات لا أول لها مطلقاً أو لا بداية لها أو التفريق بين عالمنا المشهود وعوالم أخرى لا نعلمها !

وكلام هؤلاء الأئمة وغيرهم من أهل الحديث ظاهر الدلالة أن هذه المسائل لم ترد في خاطرهم وأنهم حين تكلموا عن بدء الخلق وأول المخلوقات لم يخطر ببالهم التفريق بين العالم المشهود وغير المشهود أو نحو ذلك من الأقوال التي يذكرها ابن تيمية وبعض الفقهاء المتأخرين

فنسبة هذه الأقوال المحدثة إلى السلف مخالفة لما ورد عنهم وادعاء عليهم

وقد بالغ ابن حزم وتحامل على أصحاب هذه المقالة في مراتب الاجماع ص167 فقال:
باب من الإجماع فِي الاعتقادات يكفر من خالفه باجماع
اتَّفقُوا ان الله عز وَجل وَحده لَا شريك لَهُ خَالق كل شَيْء غَيره وَأَنه تَعَالَى لم يزل وَحده وَلَا شَيْء غَيره مَعَه ثمَّ خلق الاشياء كلهَا كَمَا شَاءَ. ه

قلت: حكاية اجماع السلف في قوله (وَأَنه تَعَالَى لم يزل وَحده وَلَا شَيْء غَيره) يمكن قبولها إذ لم يرد عنهم خلافه وأما دعوى التكفير فمبالغة

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة رجل اسمه أبو حاضر:
أبو حاضر آخر يقال له النصيبي من المبتدعة ذكر بن حزم أنه كان يقول: أن الخلق لم يزالوا مع الخالق وهذه المقالة اشتهرت بين المتأخرين وسموها حوادث لا أول لها وتمسكوا بشبهة واهية تستلزم القول بقدم العالم نسأل الله العافية. ه
لسان الميزان 30/7

وكلام ابن حزم نصه: وَقَالَ أَبُو حَاضر النصيبي من أهل نَصِيبين وَأَبُو الصَّباح السَّمرقَنْدِي وأصحابهما أَن الْخلق لم يزَالُوا مَعَ الله تَعَالَى. ه
(الفصل 170/4)

فهذا المذهب غير معروف عند السلف وإنما هو من أقوال الفلاسفة وبعض المتأخرين بل لا أعلم أحداً نسبه إلى السلف قبل ابن تيمية رحمه الله

ولعله عفا الله عنه أخذ هذا من قول بعض السلف: لم يزل الله تعالى متكلما إذا شاء.
ففهم ابن تيمية من هذا أزلية الفعل والحوادث فقال بأن السلف يقولون بحوادث لا أول لها !

وهذا خطأ تأصيلي كما قرره علماء الأصول أنَّ لازم القول ليس بقول ولا يجوز أن تنسب لقائل ما تفهمه أنت من قوله بل لابد من التفريق بين قول السلف وبين ما تفهمه أنت من قولهم وتُفَرِّع عليه من أقوال ولا يجوز التسوية بحال

على أن كلام السلف لا يفيد ما ذهب إليه
فالسلف قالوا لم يزل الله متكلماً إذا شاء
فعلّقوا الفعل بالمشيئة وليس على اطلاقه كما بينته في الرد على الحجة الأولى والثانية

والظاهر في كلام ابن تيمية وبعض فقهاء الحنابلة عدم التفريق بين (متكلماً أو فاعلاً أو خالقاً) وبين (متكلماً أو فاعلاً أو خالقاً إذا شاء ومتى شاء)
والفرق مهم في المسألة
فأفعال الله تعالى متعلقة بمشيئته وإرادته إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون

وسبق نقل كلام البخاري والطحاوي في التفريق بين صفة الخلق وبين وجود المخلوقات وأن هذا يقتضي القول بأن الله يتصف في الأزل بصفة الخلق ولا مخلوق
وقال الحافظ ابن حجر إن هذا قول جمع من السلف منهم أبو حنيفة وأن الصائر إلى هذا القول يسلم من الوقوع في مسألة حوادث لا أول لها

ومثله ما نسبه هنا إلى أئمة أهل الحديث أيضاً في قوله:
(وقيل إن الحياة مستلزمة الفعل والحركة كما قال ذلك أئمة أهل الحديث كالبخاري والدارمي وغيرهما)

فهذا أيضاً كسابقه في نسبة ما فهمه من القول إلى صاحب القول
وأئمة أهل الحديث لم يرد عنهم هذا الكلام بنصه وإنما هو فهم ابن تيمية

على أن هذا القول (الحياة مستلزمة الفعل والحركة) ليس بصحيح عند الاطلاق
فهذا القانون يصح في حق المخلوق وليس في حق الخالق سبحانه
وقوانين الطبيعة والحركة عموماً تسير على المخلوقات وبها ينتظم الكون والحياة
أما رب العالمين سبحانه فلا تسري عليه من قوانين الخلائق شيئاً
وكيف ذلك وهو من خلقها ووضعها !

ولو فرضنا رجلاً ضَمِنَ الخلود لنفسه وتحقق منه لترك العمل وأقبل على الخمول والكسل وضعفت حركة حياته حتى تقترب من التوقف أحياناً في بعض فترات حياته الممتدة الخالدة

وحركة الأحياء عموماً عند التأمل سببها النقص والحاجة والخوف من فوات المطلوب وضياع العمر فالحركة لحفظ النفس أو النسل أو لكسب الرزق وقضاء الوطر ونيل الرغبات وتشييد الأمجاد أو طلب العلوم والاجتهاد في العبادة أو غير ذلك من الحاجات والرغبات فنقص الحياة هو المستلزم للحركة في الحقيقة
أما الحياة الكاملة التامة فلا تلزمها مثل هذه القوانين
وسائر حركات الخلائق كلها إنما سببها النقص والحاجة والله أعلم

وسبق التفريق بين الصفات التي هي أزلية ومن لوازم الذات وبين الموصوف المتعلق حدوثه بالمشيئة والارادة فلا يجوز الخلط بينهما

فقولهم (الحياة مستلزمة للفعل والحركة) غير صحيح على اطلاقه
وصوابه (نقص الحياة مستلزم للفعل والحركة)
ولعلك لا تجد مثل هذا التفصيل في كتاب من قبل والحمد لله على توفيقه

وبنفس هذا التفصيل يُردُّ به على القائلين بقدم العالم وقولهم الحياة تستلزم الحركة كما نقل عنهم ابن تيمية قال:
وهؤلاء القائلون بقدم العالم اشتبه عليهم نوع التأثير بعين التأثير فلما رأوا أن الذات تستلزم كونه مؤثرا لامتناع حدوث ذلك لم يميزوا بين النوع والعين. ه

وتأثر ابن تيمية بأقوال الفلاسفة ظاهر في هذه المسألة.

الحجة الرابعة:

قال ابن تيمية: مقام أهل الجنان فيها مؤبد مسرمد فإذا لم يبعد إثبات حوادث لا آخر لها
لم يبعد إثبات حوادث لا أول لها. ه
درء تعارض العقل والنقل 183/9

قلت: تواترت الأدلة الشرعية باثبات حوادث لا آخر لها فنعيم أهل الجنة وشقاء أهل النار
لا آخر له ولم يأت نصاً واحداً باثبات حوادث لا أول لها بل الأدلة على خلافه
ومثل هذه الأمور الغيبية الحجة فيها هي السمع وليس مجرد محض العقل.

هذه هي تقريباً مجمل وأهم ما احتج به الامام ابن تيمية وارتكز عليه في إثبات أن
المخلوقات لا بداية لها وقد سقتها بلفظها من كتبه ثم لخصتها ورددت عليها من غير
إسهاب خشية الاطالة فيضعف تركيز القارئ في هذه المسألة والحمد لله وهو الموفق
للصواب.

مثال افتراضي والرد عليه:

ولعل لقائل أن يقول:
إن هناك مثال في واقعنا يسهل به تصوّر واقعية ووجود حوادث لا أول لها
فالواحد منا تبدأ أفعاله مع بداية حياته فإذا نُفخ فيه الروح تحركت أعضاؤه وإذا خرج
من رحم أمه استهل صارخاً وإذا جلس ساكناً لم ينفك عن التفكير وإذا نام لا يزال يحلم
فلا ينقطع عن الفعل حتى تنقطع عنه الحياة
فبداية أفعال الانسان تبدأ مع بداية وجوده ككائن حي
فإذا كان الله تعالى وله المثل الأعلى موجود وحي ولا بداية لحياته ولا نهاية فهو الأول
والآخر سبحانه فكذلك لا بداية لأفعاله ولا نهاية

وفرض هذا المثال في حق الله لا يصح لأمور:

1- هذا المثال يصح تصوره في حق المخلوق لأننا نشاهد هذه الحركات والأفعال منه ونرصدها أمامنا أما في حق الله فهو غيبٌ لا نحيط به علماً ولا نعلم عنه إلا ما أخبرنا به أو دلت آياته عليه.

2- هذا المثال يصح ضربه للمخلوق الذي لا يستطيع التحكم في نفسه وفي كثير من أفعاله فالانسان لا يستطيع أن يتحكم في أحلامه عند النوم ولا يستطيع أن يتحكم في فكره وتفكره وقت الفراغ والاسترخاء ولا يستطيع أن يتحكم في أفعاله وحركاته وهو طفل صغير أو وهو جنين في رحم أمه فإرادة الانسان ناقصة غير كاملة وقدرته ناقصة غير تامة وعلمه ناقص كذلك

أما رب العالمين سبحانه فله الارادة والقدرة الكاملة التامة فلا يعجزه شيء سبحانه لا في نفسه ولا في خلقه وهو المحيط بكل شيء علماً.

3- من الفوارق بين الخالق والمخلوق أن الله سبحانه كامل الارادة غير مجبور وأفعاله تتعلق بمشيئته وإرادته فهو قادر على الفعل وقادر على الخلق منذ الأزل ولا يلزم منه كونه يخلق منذ الأزل بخلاف المخلوق فارادته ناقصة وقد يعجز عن فعل ما يريد ويجبر على فعل ما لا يريد

فالقول بهذا المثال قياس مع الفارق.

4- ضرب هذا المثال مع كونه لا يصح للفرق بين الخالق والمخلوق فهو قياس مع وجود النص الصحيح وهو قوله صلى الله عليه وسلم كان الله ولا شيء غيره ولا يصح القياس مع وجود النص الصحيح.

5- الخوض في مثل هذه الأمور الغيبية يجب أن يكون في غاية الحرص والحذر مع محاولة التمسك بالنصوص السمعية الصحيحة لئلا ننزلق في بحر التأويلات والخيالات العقلية والادعاء بغير علم والله أعلم.

مناقشة اعتراضات ابن تيمية على حديث عمران بن حصين

هذا وقد أثار الامام رحمه الله اعتراضات وردود على الاحتجاج بحديث عمران بن حصين الذي هو أصلٌ في اثبات بداية الخلق والحوادث
وذلك في بحث طويل وهو ضمن مجموع الفتاوى (18/210: 243) وأُفرد في رسالة مستقلة مطبوعة

ويرى الامام أن هذا الحديث لا يدل على وجود أول المخلوقات مطلقاً ولا يفيد بدء الخلق ولا جنس الحوادث وأن القول بحوادث لا أول لها لا يتعارض مع هذا الحديث الصحيح
وذكر أسبابه في هذا القول في أربعة عشر وجهاً
وبعض هذه الأوجه هي من جنس الحجج التي سبق مناقشتها
لذا سأكتفي بمناقشة أوجه الاعتراض التي لم تتم مناقشتها تجنباً للتكرار
وربما أضم أقوال من مواضع أخرى لابن تيمية تتمة للفائدة.

الاعتراض الأول:

قال ابن تيمية في شرح حديث عمران بن حصين وهو في معرض الرد على من يحتج بالحديث على اثبات أول المخلوقات وقد جعل الرد من وجوه فقال:

أحدها: أن قول أهل اليمن (جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر) إما أن يكون الأمر المشار إليه هذا العالم أو جنس المخلوقات فإن كان المراد هو الأول كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أجابهم لأنه أخبرهم عن أول خلقه هذا العالم وإن كان المراد الثاني لم يكن قد أجابهم لأنه لم يذكر أول الخلق مطلقا. ه
الفتاوى 18/213

ثم قال: الوجه الثاني: أن قولهم "هذا الأمر" إشارة إلى حاضر موجود والأمر يراد به المصدر ويراد به المفعول به وهو المأمور الذي كَوَّنه الله بأمره وهذا مرادهم فإن الذي هو قوله "كن" ليس مشهودا مشارا إليه بل المشهود المشار إليه هذا المأمور به قال تعالى {وكان أمر الله قدرا مقدورا} وقال تعالى {أتى أمر الله} ونظائره متعددة.
ولو سألوه عن أول الخلق مطلقا لم يشيروا إليه بهذا فإن ذاك لم يشهدوه فلا يشيرون إليه بهذا بل لم يعلموه أيضا فإن ذاك لا يعلم إلا بخبر الأنبياء والرسول صلى الله عليه وسلم لم يخبرهم بذلك ولو كان قد أخبرهم به لما سألوه عنه فعلم أن سؤالهم كان عن أول هذا العالم المشهود. ه
الفتاوى 215/18

وقال في الصفدية: وإذا قيل ولا شيء معه ولا غيره مع كونه أخبر عن حال كون عرشه على الماء فمراده أنه لا شيء معه من هذا الأمر المسئول عنه وهم سألوه عن أول الأمر وسياق الحديث يدل على أنه أخبرهم بأول هذا العالم الذي خلق في ستة أيام لم يخبرهم بما قبل ذلك. ه
الصفدية 224/2 -225

قلت: التفريق بين العالم المشهود وغير المشهود هو مجرد افتراض ولا دليل عليه
فأين في كتاب الله عالم مشهود وعالم غير مشهود
وأين هذا في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
بل حتى في العلم الحديث وإلى يومنا هذا لم يثبت وجود مخلوقات أو أكوان كانت قبل هذا الكون المشهود فمثل هذا التفريق يحتاج إلى اثباته ابتداءً إما بالوحي ونصوصه الثابتة أو بطرائق العلم الحديث

نعم هناك بعض المخلوقات التي أخبرنا الله بوجودها كالعرش والقلم ونحن نؤمن بها وإن لم نرها بأعيننا أو نرصدها بآلاتنا الحديثة وذلك تصديقاً وإيماناً بخبر الله تعالى
ولكن ليس معنى هذا وجود عالم أو عوالم غير مشهودة حدثت ثم انقضت وقبل هذه العوالم عوالم أخرى غيرها حدثت ثم انقضت وهكذا منذ الأزل كما أراده الامام

وقد ذكر الامام ابن تيمية هنا أن مثل هذه الأمور لا تُعلم إلا بخبر الأنبياء
فأين هذا الخبر الذي نأخذ منه هذا التفصيل ؟!

ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم لمَّا أجابهم لم يقل أول ما خلق الله كذا حتى يمكن أن يقال إنما أجابهم عما يرونه أو عن عالمهم المشهود فحسب بل قال (كان الله ولا شيء غيره) فبدأ بالحديث عن الله تعالى قبل كل شيء وليس ثَمَّ شيء ثم تكلم عن الخلق
ولو فرضنا وجود عوالم مشهودة وعوالم غير مشهودة فهي قطعاً ليست قبل رب العالمين
فالإجابة بذكر الله أولاً تفيد عموم الخلق كما جاء في بعض طرق الحديث عند البخاري:
فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ بَدْءَ الخَلْقِ وَالعَرْشِ.

ومن هذا أخذ البخاري تبويبه "بدء الخلق"
فالحديث عام على جميع الخلق المشهود وغير المشهود

ثم تتمة الحديث قال: وكان عرشه على الماء ثم كتب في الذكر كل شيء.

فهل هذه المخلوقات في العالم المشهود ؟!
إن العالم المشاهد الذي نعيش فيه هو السموات والأرض وما بينهما من كواكب ونجوم ومجرات نعرف بعضها ونجهل أكثرها
أما العرش والقلم فهي من عالم الغيب وليست من هذا العالم المشهود الذي نعيش فيه

فمثل هذا التفصيل إن صح وجوده فهو غير مراد هنا لافتتاح الكلام بداية عن وجود الله تعالى ثم وجود مخلوقاته غير المشهودة ثم خلق السموات والأرض الذي هو العالم المشهود

وقوله في الحديث (وكتب في الذكر كل شيء) عام يشمل جميع المخلوقات ما نعرفها وما لا نعرفها ما نشهدها وما لا نشهدها فهذه الكتابة عامة لجميع المخلوقات
ويؤكد هذا قوله في حديث عبادة بن الصامت (أول ماخلق الله القلم فقال له اكتب قال ما أكتب قال اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد)

فالله سبحانه كتب في الذكر كل شيء ما كان وما سيكون
فلا يصح تعيين الكتابة بالعالم المشهود فحسب
ولو فرضنا ثبوت الخلق قبل خلق السموات والأرض مما لم نعلمه وقد نعلمه فيما بعد فاننا نجزم باحصائه وكتابته لقوله تعالى (وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) والله أعلم

فالحاصل أن العرش والقلم مخلوقات ليست من هذا العالم المشهود وهي قبل المخلوقات كلها لقول النبي صلى الله عليه وسلم (كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ)

واستدلال الامام ابن تيمية بأن أهل اليمن سألوه عن هذا العالم وأن في قولهم (هذا الأمر) إشارة إلى حاضر موجود
فحتى وإن كان أهل اليمن سألوه عما يشهدوه فإن إجابة النبي لهم كانت أعم من السؤال

فإجابة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيها زيادة علم عما سألوا عنه
فأجابهم عن بدء الخلق منذ الأزل
فقول ابن تيمية (لم يكن قد أجابهم لأنه لم يذكر أول الخلق مطلقا) غير صحيح إذ قد أجابهم وزيادة فذكر أول الخلق مطلقاً في قوله (وكان عرشه على الماء)

وهذا معروف في أجوبة النبي صلى الله عليه وسلم على أسئلة السائلين فربما سألوه عن الشيء فيجيبهم ويزيد عليها

قال ابن العربي: وَذَلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ الْفَتْوَى أَنْ يُجَاءَ فِي الْجَوَابِ بِأَكْثَرَ مِمَّا سُئِلَ عَنْهُ تَتْمِيمًا لِلْفَائِدَةِ وَإِفَادَةً لِعِلْمِ غَيْرِ الْمَسْئُولِ عَنْهُ. ه
سبل السلام 21/1

فالحجة في جواب النبي صلى الله عليه وسلم بذكر بدء الخلق مطلقاً من غير تفريق بين المشهود وغير المشهود والله أعلم

ومثل هذه التفاريق المحدثة لم تكن معروفة عند السلف ولا يوجد في كلامهم على بداية المخلوقات التفريق بين العالم المشهود وغير المشهود بل كلامهم على العموم كما هو منطوق النص

قال الامام الطبري في تاريخه (31/1):
فَإِذَا كَانَ مَعْلُومًا أَنَّ خَالِقَ الأَشْيَاءِ وَبَارِئَهَا كَانَ وَلا شَيْءَ غَيْرُهُ وَأَنَّهُ أَحْدَثَ الأَشْيَاءَ فَدَبَّرَهَا وَأَنَّهُ قَدْ خَلَقَ صُنُوفًا مِنْ خَلْقِهِ قَبْلَ خَلْقِ الأَزْمِنَةِ وَالأَوْقَاتِ وَقَبْلَ خَلْقِ الشَّمْسِ

وَالْقَمَرِ اللَّذَيْنِ يُجْرِيهِمَا فِي أَفْلاكِهِمَا وَبِهِمَا عُرِفَتِ الأَوْقَاتِ وَالسَّاعَاتِ وَأُرِّخَتِ التَّأْرِيخَاتِ وَفُصِلَ بين الليل والنهار فلنقل: فِيمِ ذَلِكَ الْخَلْقُ الَّذِي خُلِقَ قَبْلَ ذَلِكَ؟ وَمَا كان أوله ؟

القول في ابتداء الخلق ما كان أوله

ثم قال (33/1): وقد اختلف أهل السلف قبلنا في ذلك فنذكر أقوالهم ثم نتبع البيان عن ذلك إن شاء الله تعالى...
ثم ذكر أقوال السلف واختلافهم في تعيين أول المخلوقات.

وهذا ظاهر في الكلام على عموم الخلق من غير تفصيل ولم يحكي عن أحد التفريق بين المشهود وغيره
ولم أجد أحداً من علماء السلف حكى مثل هذا التفريق في شرح الحديث أو في الكلام على هذه المسألة عموماً لا الطبري ولا الدارمي ولا غيرهما والله أعلم.

ملاحظة:

القول بأن هناك عوالم غير مشهودة أو أكوان قبل هذا الكون لم يأت به نص من الشرع الشريف ومثل هذه الغيبيات طالما لم يأت نص بثبوتها فلا نثبتها وكذلك لا ننفيها فالله أعلم بها

وهناك جهود مكثفة من علماء فيزياء الكون لمحاولة اثبات أكوان قبل ميلاد كوننا
ولو فرضنا اثبات وجود هذا الخلق فليس هناك في الشرع ما ينفيه ولا مانع من قبوله والاعتراف به
ولكن نقطة الخلاف هنا أنه لو كان هناك عوالم عديدة مديدة قبل هذا العالم المشهود فلابد لهذا الخلق من بداية لم يكن قبلها أي شيء من خلق الله فكان الله ولا شيء غيره

وبهذا الكلام نجيب به على من تسائل فقال:
من الطبيعي أن يكون هناك أكوان قبل هذا الكون
وهل من المعقول أن يكون هذا الكون هو أول ما خلق الله ؟
وبعبارة أخرى: هل هذا الكون هو أول تجربة لله في الخلق ؟

وما سبق شرحه فيه إجابة كافية والحمد لله

فليس في الشرع ما ينفي مثل هذا والله سبحانه وتعالى يقول (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) وقال تعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا)
والخلاف والبحث هو في بداية الخلق وليس في سبق حدوثه من قبل أو تعدده وتكراره والله أعلم.

الاعتراض الثاني:

قال ابن تيمية في شرح حديث عمران بن حصين في معرض الرد على من يحتج به على أول المخلوقات:

الوجه الثالث: أنه قال {كان الله ولم يكن شيء قبله} وقد روي: معه وروي: غيره والألفاظ الثلاثة في البخاري والمجلس كان واحدا وسؤالهم وجوابه كان في ذلك المجلس وعمران الذي روى الحديث لم يقم منه حين انقضى المجلس بل قام لما أخبر بذهاب راحلته قبل فراغ المجلس وهو المخبر بلفظ الرسول فدل على أنه إنما قال أحد الألفاظ والآخران رويا بالمعنى.
وحينئذ فالذي ثبت عنه لفظ القبل فإنه قد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في دعائه: أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء. وهذا موافق ومفسر لقوله تعالى {هو الأول والآخر والظاهر والباطن} وإذا ثبت في هذا الحديث لفظ القبل فقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قاله واللفظان الآخران لم يثبت واحد منهما أبدا وكان أكثر أهل الحديث إنما يروونه بلفظ القبل: كان الله ولا شيء قبله مثل الحميدي والبغوي وابن الأثير وغيرهم وإذا كان إنما قال: كان الله ولم يكن شيء قبله لم يكن في هذا اللفظ تعرض لابتداء الحوادث ولا لأول مخلوق. ه
الفتاوى 216/18

قلت: قوله رحمه الله: أكثر أهل الحديث إنما يروونه بلفظ القبل غير صحيح عند التحقيق وإليك بيان ذلك:

تحقيق ألفاظ حديث عمران بن حصين:

ابتداءً الحديث كما قال الامام ابن تيمية كان في مجلس واحد من طريق صحابي واحد حضر المجلس ولم يتمه فلا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لفظاً واحداً والألفاظ الأخرى هي من باب الرواية بالمعنى

والحديث من رواية جامع بن شداد المحاربي عن صفوان بن محرز المازني عن عمران بن حصين رضي الله عنه

هذا هو اسناد الحديث الذي يروى به ثم تعددت بعد ذلك طرق الحديث عن جامع بن شداد وأكثر أهل الحديث إنما يروونه بلفظ (غيره) خلافاً لما قرره ابن تيمية رحمه الله

لفظ (غيره):

رواه عن جامع بن شداد كلاً من:

1- عبد الرحمن بن عتبة المسعودي عند النسائي في الكبرى 11176 من طريق خالد بن الحارث البصري وعند الطبري في التفسير 247/15 وفي التاريخ 38/1 من طريق النضر بن شميل البصري وعند ابن خزيمة في التوحيد 884/2 والحاكم 3307 من طريق روح بن عبادة البصري ثلاثتهم (خالد والنضر وروح) عن المسعودي عن جامع بن شداد عن صفوان عن عمران
ورواية المسعودي هنا يرويها عنه البصريون قبل اختلاطه

ورواه عثمان بن عمر عند الطحاوي في مشكل الآثار 301/14 ويزيد بن هارون عند أبي الشيخ في العظمة 574/2 كلاهما عن المسعودي عن جامع بن شداد عن صفوان عن بريدة بن الحصيب
وهذا وهمٌ من المسعودي نفسه نبَّه عليه الامام أحمد كما في العلل رواية عبد الله 5345 وكذا البخاري في التاريخ 305/4 والطحاوي بعد روايته لحديث المسعودي وقال ابن حجر: مَعْلُولٌ وَالصَّوَابُ عَنْ صَفْوَانَ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ. ه
اتحاف المهرة 2262

قلت: وهو الصواب فإن المسعودي قد اختلط بآخره ورواية يزيد بن هارون عنه بعد اختلاطه بخلاف رواية خالد بن الحارث وأقرانه فهي قبل اختلاطه

وجاء في رواية الطبري عن النضر بن شميل عن المسعودي (وكتب في الذكر قبل كل شيء) وهذه زيادة مخالفة لسائر روايات الحديث عن المسعودي وغيره والتي اتفقت على قوله (وكتب في الذكر كل شيء) بدون لفظ القبل هنا فهي شاذة
فالمحفوظ في حديث المسعودي يسنده إلى عمران بن حصين بلفظ (غيره)

2- سفيان الثوري عن جامع بن شداد عند ابن منده في مجلس من أمالي ابن منده مخطوط من الشاملة رقم 26 من طريق إبراهيم بن معاوية وفي التوحيد لابن منده 8 من طريق أحمد بن يوسف كلاهما (إبراهيم وأحمد) عن محمد بن يوسف الفريابي عنه بلفظ (غيره)

وفي المطبوع لكتاب التوحيد عن (سفيان بن عيينة) والظاهر أنه تصحيف فلا يعرف لابن عيينة رواية في هذا الحديث وقد رواه الجورقاني في الأباطيل 193/1 من طريق ابن منده بنفس اسناده عن الفريابي عن سفيان بن سعيد الثوري وليس ابن عيينة والظاهر أن الكلمة تصحفت في المخطوط من سفيان بن سعيد إلى سفيان بن عيينة

وفي بعض نسخ المطبوع من كتاب التوحيد عن أحمد بن يوسف عن سفيان بن عيينة ولم يذكر الفريابي لكن في طبعة دار الفضيلة بتحقيق أ/الوهيبي وأ/الغصن أثبته عن أحمد بن يوسف عن الفريابي عن سفيان وكذا هو عند الجورقاني في الأباطيل فالظاهر أنه سقط الفريابي في الاسناد من احدى النسخ

وعند الجورقاني ذكر الحديث بلفظ (قبله) والمحفوظ في كتب ابن منده (التوحيد والأمالي) بلفظ (غيره)

ورواه محمد بن كثير عند البخاري 3190 والدارمي في الرد على الجهمية 39 والخطيب في الكفاية 427/1 وغيرهم عن سفيان الثوري به بلفظ: فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ بَدْءَ الخَلْقِ وَالعَرْشِ.

ورواه أبو نعيم عند البخاري 4365 والطبراني 203/18 وأبو عاصم عند البخاري 4386 وعبد الرحمن بن مهدي عند أحمد 19822 والترمذي 3951 والبزار 69/9 وغيرهم ووكيع بن الجراح عند أحمد 19822-19910 وابن أبي شيبة 32502 وعبد الرزاق عند أحمد 19886

خمستهم (أبو نعيم وأبو عاصم وابن مهدي ووكيع وعبد الرزاق) عن سفيان الثوري به مختصراً ووقفوا على قوله (اقبلوا البشرى .. قالوا قد قبلنا) ولم يذكروا قصة بدأ الخلق

ورواه مؤمل بن إسماعيل عند ابن حبان 7292 والطحاوي في شرح المشكل 5633 مختصراً بنحو رواية الجماعة عن سفيان وزاد عند الطحاوي (ثُمَّ حَدَّثَ) يعني ببقية الحديث
والظاهر أن سفيان كان يختصره والله أعلم.

3- سليمان الأعمش:
وقد اختلفوا على الأعمش في هذا اللفظ:
فرواه عنه بلفظ (غيره) جماعة وهم:

1- حفص بن غياث (ثقة صاحب كتاب) عن الأعمش عن جامع بن شداد عن صفوان بن محرز عن عمران بن حصين عند البخاري 3191 والفسوي في المعرفة والتاريخ 195/3 والبيهقي في الكبرى 17702 وفي الأسماء والصفات 11 وفي القضاء والقدر 8

2- أبو بكر بن عياش (ثقة صحيح الكتاب سيء الحفظ) عن الأعمش عن جامع بن شداد عند الطبراني في الكبير 203/18 وابن أبي شيبة في العرش حديث رقم 1

3- أبو إسحاق الفزاري (ثقة) عن الأعمش عن جامع بن شداد في مسند الروياني 135/1 والفريابي في القدر 85/1 والطحاوي في المشكل 300/14 وأبو نعيم في الحلية 259/8 والبيهقي في الأسماء والصفات 234/2 وغيرهم

4- عبد الملك بن مَعن الهذلي (ثقة) عن الأعمش عن جامع بن شداد عند ابن حبان 6140

5- محمد بن عبيد (ثقة) عن الأعمش عن جامع بن شداد عند ابن أبي عاصم في الأوائل 156 والطبراني في الكبير 204/18
وقد زاد في رواية (وَخَلَقَ الذِّكْرَ) وهذه اللفظة منكرة
قال الطبراني: هَذَا الْحَرْفُ كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ يُخْطِئُ فِيهِ وَيَنْهَاهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَنْ يُحَدِّثَ بِهِ وَالصَّوَابُ مَا رَوَى أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ وَغَيْرُهُ وَكَتَبَ الذِّكْرَ. ه

لفظ (قبله):

جاء عن بعض الرواة عن الأعمش فقط
فرواه عنه كلاً من:

1- أبو حمزة السكري (ثقة صاحب كتاب) عن الأعمش عن جامع بن شداد عند البخاري 7418 وابن منده في التوحيد 8

2- شيبان التميمي (ثقة صاحب كتاب) عن الأعمش عند ابن حبان 6142 والبيهقي في الكبرى 17701 والتوحيد للمقدسي 10
وفي مجلس من أمالي ابن منده 26 (مخطوط من الشاملة) عن شيبان بلفظ (غيره)

3- أبو معاوية الضرير (ثقة) عن الأعمش عند أحمد 19876 والفريابي في القدر 83 والطبري في التاريخ 38/1 وغيرهم بلفظ (كان الله قبل كل شئ)

لفظ (كان الله عز وجل لا شريك له):

يرويه أبو عوانة عن الأعمش عن جامع بن شداد عند الفريابي في القدر 84

لفظ (معه):

رواية (معه) لا وجود لها في صحيح البخاري ولا في كتب السنة المعروفة والله أعلم

قال الألباني في تخريج شرح الطحاوية:
ورواية معه لم أجدها عند البخاري وقد أخرج الحديث في موضعين من صحيحه: بدء الخلق والتوحيد بالروايتين الأخيرتين: قبله وغيره وبالأخرى منهما أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات 6 و270 ورواه أحمد 4/ 431 بالرواية الأولى منهما لكن بلفظ كان الله تبارك وتعالى قبل كل شيء وعزاه الذهبي في مختصر العلو 98/ 40 للبخاري وقال حديث صحيح! انظر المقدمة ص27 وكلام الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث يشعر بأن هذه الرواية معه لم يقف عليها فقد قال 6/ 206: تنبيه: وقع في بعض الكتب في هذا

الحديث: كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان وهي زيادة ليست في شيء من كتب الحديث نبه على ذلك العلامة تقي الدين ابن تيمية وهو مسلم في قوله: وهو الآن إلى آخره وأما لفظ: ولا شيء معه فرواية الباب بلفظ: ولا شيء غيره بمعناها.
قلت: فلو كان عند الحافظ علم بهذه الرواية لذكرها واستغنى بذلك عن الاحتجاج عليها بمعنى الرواية التي ذكرها كما هو ظاهر والله أعلم. ه
ط. دار السلام ص133

من التخريج السابق يتضح لنا أن لفظة (غيره) في الحديث هي أكثر طرقاً من لفظة (قبله)
وكذلك رواتها الثقات أكثر عدداً فهي أصح ثبوتاً

وبيانه: أن لفظة (قبله) تروى من طريق الأعمش فقط عن جامع بن شداد
أما لفظة (غيره) فهي تروى من طريق الأعمش ومن غير طريق الأعمش كالمسعودي والثوري فهم يروون الحديث عن جامع بن شداد بلفظ (غيره) وعند البخاري عن سفيان الثوري عن جامع بلفظ (بَدْءَ الخَلْقِ وَالعَرْشِ) وهي بمعناها وتفيد بداية المخلوقات

ثم إن أكثر تلاميذ الأعمش يروونه عنه بلفظ (غيره) أيضاً
فاتفق بذلك رواة الحديث عن جامع بن شداد على لفظة (غيره)

وإنما جاءت لفظة (قبله) عن بعض تلاميذ الأعمش وأكثر تلاميذه يخالفونهم في ذلك ويروونها عنه كسائر أقرانه بلفظ (غيره)
وإنما رواها من رواها بلفظ (قبله) بالمعنى
ويؤكد ذلك رواية أبي معاوية الضرير بلفظ (كان الله قبل كل شئ) وهذا تصرف ظاهر في الرواية بالمعنى وهي بمعنى كان الله ولا شيء غيره

ويمكن أن يقال: إن اختلاف الألفاظ هو من الأعمش نفسه فتارة يرويها بلفظ غيره وتارة يرويها بألفاظ أخرى بمعناها
ولعل هذا أشبه لأمرين:

أحدهما: أن الرواة الذين رووا الحديث عن جامع بن شداد غير الأعمش اتفقوا على روايته بلفظ (غيره)

والآخر: أن الرواة الذين رووه عن الأعمش بألفاظه المختلفة هم ثقات وبعضهم أصحاب كتاب يعني يكتبون ويضبطون من لفظ الشيخ
وعلى كل حال سواء كان هذا أو ذاك فلفظة (غيره) هي الأصلية في الحديث من رواية الأكثرين وما سواها فمرويٌّ بالمعنى

أيضاً مما يؤكد أن الرواية بلفظ (قبله) هي من باب الرواية بالمعني أن هذه الرواية جاءت بلفظ (كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ)
وهذا تصرف ظاهر من الراوي في ترتيب جمل الحديث فجعل جملة (وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ) بعد جملة (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ)
وعامة الرواة الحديث يذكرون جملة الكتابة في الذكر قبل خلق السموات والأرض في الترتيب
فهذا تصرف من الراوي على خلاف الجادة في ترتيب جمل الحديث مما يؤكد أن هذه الرواية كانت بالمعنى والله أعلم

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: قوله "كان الله ولم يكن شيء غيره" في الرواية الآتية في التوحيد "ولم يكن شيء قبله" وفي رواية غير البخاري "ولم يكن شيء معه" والقصة متحدة فاقتضى ذلك أن الرواية وقعت بالمعنى ولعل راويها أخذها من قوله صلى الله عليه وسلم في دعائه في صلاة الليل كما تقدم من حديث ابن عباس "أنت الأول فليس قبلك شيء" لكن رواية الباب أصرح في العدم وفيه دلالة على أنه لم يكن شيء غيره لا الماء ولا العرش ولا غيرهما لأن كل ذلك غير الله تعالى ويكون قوله "وكان عرشه على الماء" معناه أنه خلق الماء سابقا ثم خلق العرش على الماء. ه
الفتح 289/6

وقال أيضاً في الفتح (باب وكان عرشه على الماء من كتاب التوحيد):
قوله كان الله ولم يكن شيء قبله تقدم في بدء الخلق بلفظ ولم يكن شيء غيره وفي رواية أبي معاوية كان الله قبل كل شيء وهو بمعنى كان الله ولا شيء معه وهي أصرح في الرد على من أثبت حوادث لا أول لها من رواية الباب وهي من مستشنع المسائل المنسوبة لابن تيمية ووقفتُ في كلام له على هذا الحديث يرجح الرواية التي في هذا الباب على غيرها مع أن قضية الجمع بين الروايتين تقتضي حمل هذه على التي في بدء الخلق لا العكس والجمع يقدم على الترجيح بالاتفاق. ه
الفتح 410/13

قلت: وقد وافق الألباني الحافظ ابن حجر في هذا الترجيح كما في سلسلة الهدى والنور شريط 87

وبذلك يتبين لنا أنه عند الترجيح فإن لفظة (غيره) هي الأصح والأثبت من لفظة (قبله) وفق معايير وقواعد علم الحديث وإلا فالجمع ممكن وذلك باعتبار رواية (قبله) رواية بالمعنى فلا يوجد كبير فرق في الحقيقة بين (غيره) و(معه) و(قبله)
لذا تنوعت عبارات السلف في رواية الحديث ولم يروا بأساً بذلك إذ المعنى متقارب

وهذا يدلك أنه لم يخطر ببالهم مسألة جنس الحوادث ومخلوقات لا أول لها... الخ
فهذه المسألة كما قال الحافظ ابن حجر من مقالات الفلاسفة وانتشرت بين المتأخرين

وقول ابن حجر (ولعل راويها أخذها من قوله صلى الله عليه وسلم في دعائه في صلاة الليل كما تقدم من حديث ابن عباس أنت الأول فليس قبلك شيء)

هو كما قال فحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ) هو من رواية سليمان الأعمش راوي حديثنا (كان الله ولا شيء غيره) وهو الذي اختلفت عليه الرواة في لفظ غيره أو قبله
فلعله تصرف في الرواية أحياناً أخذاً من هذا الدعاء الذي هو من روايته أيضاً والله أعلم.[3]

وقول ابن حجر (كما تقدم من حديث ابن عباس) لعله وهم
فحديث ابن عباس في صلاة الليل ليس فيه هذا الدعاء
انظر فتح الباري 3/3
وإنما هو من حديث أبي هريرة عند مسلم 208/4 وأحمد 8960 وأصحاب السنن في أذكار النوم ويُروى عن عائشة ولا يصح.
انظر المسند المصنف المعلل 122/39

---

[3] انظر رواية الأعمش لهذا الحديث عن أبي صالح عن أبي هريرة عند مسلم (208/4) والترمذي (3481) وابن ماجه (3831) والنسائي في الكبرى (7622)

ومما سبق يتبين خطأ ما ذهب إليه الامام ابن تيمية في هذا الحديث بتقديمه للفظ (قبله) وتأويل الحديث عليها فإن ذلك مردود كما سبق تخريجه
ويبقى هذا الحديث الجليل أصلٌ في الباب وحجة قوية على من يقول بحوادث لا أول لها

فقول الرسول صلى الله عليه وسلم (كان الله ولا شيء غيره) يبطل هذه الدعوى من أصلها والله أعلم

قال البيهقي: قوله (كان الله ولم يكن شيء غيره) يدل على أنه لم يكن شيء غيره لا الماء ولا العرش ولا غيرهما وكل ذلك أغيار. ه
الأسماء والصفات 776 والاعتقاد ص91

وقال في شعب الايمان 102: وَجَمِيعُ ذَلِكَ مَوْجُودٌ عَنْ عَدَمٍ بِإِيجَادِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاخْتِرَاعِهِ إِيَّاهُ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} وَسُئِلَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَدْءِ هَذَا الْأَمْرِ فَقَالَ (كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ) ثُمَّ ذَكَرَ الْخَلْقَ. ه

الاعتراض الثالث:

قال الامام ابن تيمية: الوجه الرابع: أنه قال فيه: "كان الله ولم يكن شيء قبله أو معه أو غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء" فأخبر عن هذه الثلاثة بلفظ الواو لم يذكر في شيء منها ثم وإنما جاء ثم في قوله "خلق السموات والأرض" وبعض الرواة ذكر فيه خلق السموات والأرض بثم وبعضهم ذكرها بالواو فأما الجمل الثلاث المتقدمة فالرواة متفقون على أنه ذكرها بلفظ الواو. ه
الفتاوى 217/18

قلت: الرواة ليسوا متفقين على ذكرها بلفظ الواو كما ذكر الامام بل منهم من رواها بلفظ (ثم) كما سبق تخريجه في أول البحث

ولعل ابن تيمية قد نسي هذه الرواية فإنه قال في الصفدية 82/2:
وكذلك قوله في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري "كان الله ولا شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء" وفي رواية "ثم كتب في الذكر كل شيء" فهو أيضا دليل على أن الكتابة في الذكر كانت والعرش على الماء. ه

فأثبت رحمه الله رواية ثم كتب في الذكر كل شيء
فقوله هنا بأن الرواة متفقون على ذكرها بلفظ الواو وهمٌ منه رحمه الله وغفر له.

الاعتراض الرابع:

قال رحمه الله: الوجه السابع أن يقال: لا يجوز أن يجزم بالمعنى الذي أراده الرسول صلى الله عليه وسلم إلا بدليل يدل على مراده فلو قدر أن لفظه يحتمل هذا المعنى وهذا المعنى لم يجز الجزم بأحدهما إلا بدليل فيكون إذا كان الراجح هو أحدهما فمن جزم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد ذلك المعنى الآخر فهو مخطئ. ه
الفتاوى 220/18

قلت: قول الرسول صلى الله عليه و سلم (كان الله ولا شيء غيره) لفظ لا يحتمل معنيين بل هو متعين على معنى واحد وهو وجود الله تعالى ولا شيء معه
فليس هذا باللفظ المحتمل حتى نحتاج إلى دليل آخر يؤيد أحد المعنيين بل هو بنفسه دليل قائم بالحجة وأصل في المسألة
ثم إن ابن تيمية قد رجّح أحد المعنيين على الآخر ولم يذكر أي دليل يقوي ما ذهب إليه من ترجيح أحد المعنيين على الآخر فيكون بذلك قد حكم على نفسه بأنه مخطئ !

الاعتراض الخامس:

قال رحمه الله: الوجه الثامن: أن يقال: هذا المطلوب لو كان حقا لكان أجل من أن يحتج عليه بلفظ محتمل في خبر لم يروه إلا واحد ولكان ذكر هذا في القرآن والسنة من أهم الأمور لحاجة الناس إلى معرفة ذلك لما وقع فيه من الاشتباه والنزاع واختلاف الناس. ه
الفتاوى 220/18

قلت: وبنفس كلامه أقول:
لو كان مطلوب ابن تيمية حقاً لكان أجل من أن يحتج عليه بمقدمات عقلية تخلو من الأدلة الشرعية ولو بلفظ محتمل في خبر لم يروه إلا واحد
ولكان ذكر هذا في القرآن والسنة من أهم الأمور لحاجة الناس إلى معرفة ذلك

وهذا الكلام من رجل يؤمن بحجية خبر الواحد في العقائد والأحكام كما قرره هو في غير موضع لأمر يستغرب !

الاعتراض السادس:

قال رحمه الله: الوجه الحادي عشر أن كثيرا من الناس يجعلون هذا عمدتهم من جهة السمع: أن الحوادث لها ابتداء وأن جنس الحوادث مسبوق بالعدم إذ لم يجدوا في الكتاب والسنة ما ينطق به مع أنهم يحكون هذا عن المسلمين واليهود والنصارى كما يوجد مثل هذا في كتب أكثر أهل الكلام المبتدع في الإسلام الذي ذمه السلف وخالفوا به الشرع والعقل وبعضهم يحكيه إجماعا للمسلمين وليس معهم بذلك نقل لا عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا عن الكتاب والسنة فضلا عن أن يكون هو قول جميع المسلمين. ه
الفتاوى 222/18

قلت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (كان الله ولا شيء غيره)
وهذا الحديث أصل في الباب

قال الخطابي رحمه الله تعليقاً على حديث "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه":
وفى الحديث دليل على أنه لا حاجة بالحديث أن يُعرض على الكتاب وأنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة بنفسه. ه
معالم السنن 299/4

وقال ابن عباس: إن الله تعالى استوى على عرشه قبل أن يخلق شيئاً.
وقال مجاهد في تفسير قوله تعالى "وكان عرشه على الماء": قبل أن يخلق شيئاً.
وقال قتادة: ينبئكم ربكم تبارك وتعالى كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض.
وقال جبير بن نفير: كان عرشه على الماء وإنه خلق القلم فكتب ما هو خالق إلى يوم القيامة وما هو كائن إلى يوم القيامة ثم إن ذلك الكتاب سبح الله ومجده ألف عام قبل أن يبدأ خلق شيء من الخلق.

فهذا هو النص الصحيح عن رسول الله

وهذه هي بعض أقوال السلف من الصحابة والتابعين الدالة على بداية الخلق ونفي أزلية المخلوقات

والسؤال هو: هل من يقولون بحوادث لا أول لها معهم نقل صريح من الكتاب والسنة أو عن أحد من الصحابة والتابعين كما يلزمون غيرهم بذلك ؟!

الخلاصة:

هذا تقريباً أهم وأقوى ما احتج به الامام ابن تيمية وما اعترض به على من احتج بحديث عمران بن حصين رضي الله عنه ومناقشته والرد عليه فيما ذهب إليه

ومن تأمل كلام ابن تيمية في هذه المسألة عرف حقيقة تبنيه لها وحسن قصده في هذا

فالامام رحمه الله كان بمثابة الرد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم وكان في رده يلتزم طريقة السلف القائلين باثبات الصفات الفعلية لله تعالى
فاضطر إلي التأويل وإلى القول بأزلية جنس المخلوقات حتى يثبت حدوث هذا العالم وبطلان القول بقدمه ويبطل في نفس الوقت أيضاً قول أهل الكلام الذين ينفون الصفات الفعلية الاختيارية عن الرب سبحانه

وقد كشف ابن تيمية عن قصده هذا فقال:
وهؤلاء القائلون بقدم العالم اشتبه عليهم نوع التأثير بعين التأثير فلما رأوا أن الذات تستلزم كونه مؤثرا لامتناع حدوث ذلك لم يميزوا بين النوع والعين فظنوا أن هذا يقتضي قدم الأفلاك أو غيرها من أعيان العالم. وهذا خطأ قطعا فإن الذات تستلزم نوع التأثير لا عينه فإذا قدر أنها لم تزل فاعلة لشيء بعد شيء لم يكن شيء من مفعولاتها قديما بل كل ما سواها حادث كائن بعد أن لم يكن وإن كان فعلها من لوازم ذاتها.
والذين قابلوا هؤلاء لما أرادوا أن يثبتوا حدوث كل ما سوى الله ظنوا أن هذا يتضمن أنه كان معطلا غير قادر على الفعل وأن كونه محدثا لا يصح إلا على هذا الوجه فهؤلاء أثبتوا التعطيل عن نوع الفعل وأولئك أثبتوا قدم عين الفعل وليس لهم حجة تدل على ذلك قط. ه
الصفدية 97/2

فأراد ابن تيمية أن يبطل قولهم من جنس حجتهم فاضطر إلى هذا القول غفر الله له خروجاً من التناقض بين قوله الحياة تستلزم الحركة [4] والايمان بحدوث جميع المخلوقات وأن لا قديم مع الله تعالى
ولم يفرق رحمه الله إلى الفرق بين الصفات الأزلية لله تعالى وبين الموصوف الحادث المتعلق بالمشيئة كما بينته فغفر الله له وتجاوز عما أخطأ فيه فكم له من أقوال وأفعال ومواقف نصر فيها الاسلام والسنة فرحمه الله وغفر له

قلت هذا الكلام تذكرة لمن في قلبه شنئان وغيظ على الامام فيسارعون إلى تكفيره تارة وتبديعه تارة لقوله في هذه المسألة مع أنه معروف عند أهل العلم أنه ليس كل من وقع في البدعة وقعت البدعة عليه وليس كل من وقع في الكفر وقع الكفر عليه وليس كل من اجتهد فأخطأ يعاب ويذم

ويعلم الله وإنصافاً للحقيقة أني لم أر في كل ما قرأت للامام في هذه المسألة إلا حسن القصد والغيرة على الدين والدفاع عن عقيدة السلف الصالح ولم أر في أي شيء من كلامه ما يدل على غير ذلك

فسبحان الله متى كانت زلة العالم سبباً في تبديعه أو تكفيره !
فليتق الله أناساً لا همّ لهم إلا القدح في النوايا والشك في أعمال القلوب التي لا يعلمها إلا علاّم الغيوب نسأل الله الهدى والعفو والعافية

وأنبه على أن هناك من كبار علماء الأزهر المعاصرين وافقوا الامام ابن تيمية في هذه المسألة
منهم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية (ت 1323ه -1905م)

وقد نقل قول الفلاسفة:
ومعلوم أنه على فرض أنه لم يزل خلاقاً إلى الأبد فكل ما خلقه فهو متناه ونسبة المتناهي إلى غير المتناهي كلا نسبة وذلك جلي التصور فنسبة إعطاء الحق للوجود إلى

---

4 وهو القانون الذي جرى عليه الفلاسفة في قولهم بقدم العالم والتزمه أيضاً ابن تيمية فوقع في القول بحوادث لا أول لها وقد سبق ذكر هذا القانون ومناقشته والرد على من عمم الاحتجاج به ولم يفرق بين الكمال والنقص بين الخالق والمخلوق والحمد لله.

منعه عن كل موجود ليست بشيء وإن هذا إلا غل اليد حيث إن الإعطاء ليس بشيء يذكر في جانب المنع وهذا من الشناعة بمكان.

ثم قال: والجواب أن ذلك أي التخلص من هذه الشناعة لا يتوقف على القول بقدم شيء من أجزاء العالم بل يكفي فيه أن يقال: إن الله لم يزل خلاقاً وإن كان كل جزء من أجزاء العالم حادثاً فلا أول لعطائه ولا مانع يقهره سبحانه وهو الجواد الحق ينفق كيف يشاء ولا شيء من العالم بقديم بل كل حادث فهو مسبوق بالعدم فلا دلالة في الآية على القدم. ه
التعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية ص258

ومنهم الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية (ت 1354ه -1935م) في سلم الوصول لشرح نهاية السول 103/2:

قال الأسنوى "الثاني أن المحال من التسلسل إنما هو التسلسل في المؤثرات والعلل وأما التسلسل في الآثار فلا نسلم إلى آخره" كلام جيد واما قول الاصفهاني وفيه نظر لأنه يلزم منه تجويز حوادث لا أول لها وهو باطل على رأينا فنقول لا يلزم كونه باطلاً على رأيه أنه باطل في الواقع ونفس الأمر فإنه لغاية الآن لم يقم دليل على امتناع التسلسل في الآثار الموجودة في الخارج وان اشتهر أن التسلسل فيها محال ولزوم حوادث لا أول لها لا يضر العقيدة إلا إذا قلنا لا أول لها بمعنى لا أول لوجودها وهذا مما لم يقل به أحد بل الكل متفق على ان ما سوى الله تعالى مما كان أو يكون حادث أي موجود بعد العدم بقطع النظر عن أن تقف آحاده عند حد من جانبي الماضي والمستقبل أولا تقف عند حد من جانبهما أو من أحدهما الا ترى ان الإجماع قام على أن نعيم الجنة لا يتناهى ولا يقف عند حد في المستقبل وبعد كونه حادثاً بمعنى أنه موجود بعد العدم لا يضرنا أن نقول لا آخر له بمعنى عدم انقطاع آحاده وعدم وقوفها عند حد ولو قلنا أنه لا آخر لها بمعنى أن البقاء واجب لها لذاتها لكان كفرا، فكذلك من جانب الماضي نقول حوادث لا أول لها بمعنى أنها لا تقف آحادها عند حد تنتهي اليه وكل واحد منها موجود بعد العدم ولكنها لا تتناهى في دائرة ما لا يزال ولو قلنا أنها لا أول لوجودها ولا افتتاح له لكان ذلك قولاً بقدمها وذلك كفر وعليك بكتابنا القول المفيد وحواشي الخريدة. ه
نقلاً من كتاب قدم العالم وتسلسل الحوادث ص58 -59

فهؤلاء من كبار علماء الأزهر وقد قالوا بنفس قول الامام فلماذا التسرع في التبديع والتكفير ؟!

هذا وأنصح إخواني من الباحثين وطلبة العلم بالاقتصاد في الحب والاتباع لابن تيمية
فالخطأ جائز عليه وعلى غيره ممن هو أكبر منه
سواء كان الخطأ في الفقه أو في العقيدة
فالبعض لا يتحرج من تخطئة ابن تيمية في مسألة في الفقه أو في الحديث مثلاً لكنه يتحرج وبشدة أن يحكم عليه بالخطأ في مسألة عقدية كأن ابن تيمية في العقيدة معصوم ولا يخطئ !

والحق كل الحق أن ابن تيمية وغير ابن تيمية وارد عليهم الخطأ في كل أبواب العلم ولا حرج في ذلك
فكم من إمام عالم من أهل السنة وعنده زلات في تأويل الصفات أو مسائل الايمان أو أخطأ في شرح حديث من أحاديث الصفات أو رمي بالقدر أو الارجاء

ومن نظر في سيرة علماء السلف والخلف فسيجد من ذلك الكثير وهم أئمة السنة والدين غفر الله للجميع

ولا يصح اتخاذ أحد من الرجال كنموذج صافي وخالي من الخطأ
أو أن يتخذ من أقواله حجة في الدين فهذا من الغلو الذي يقع فيه كثير من مدعي الانصاف

وهذا النموذج الصافي الخالي من الخطأ لا أعلمه الا في شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم
وأما من سواه فالدليل حَكَمٌ عليه مهما كان هو ومهما كانت منزلته في الاسلام
وكذلك علومه تخضع للتقييم والنقد في أي أبواب العلم والدين بلا استثناء والله الموفق والهادي سبحانه.

خاتمة:

بعد هذا العرض لمذاهب العلماء وأدلتهم في حدوث بداية الخلق وأول المخلوقات ومناقشتها يتبين لنا ما يلي:

1- قول الرسول صلى الله عليه وسلم "كان الله ولا شيء غيره" حديث صحيح صريح في امتناع حوادث لا أول لها وهو أصلٌ في الباب.

2– امتناع تسلسل الحوادث لأن الشرع نفاه وليس لأنه يمتنع على الله تعالي كما زعم بعض المتكلمة.

3- نسبة تسلسل الحوادث إلى علماء السلف نسبة خاطئة ولا دليل عليها وسببها فهم خاطئ لبعض أقوالهم وما ورد عنهم ينفي هذه الدعوى نحو قولهم (قبل أن يخلق شيئاً) وهي صريحة في نفي حوادث لا أول لها.

4- حقيقة ما ذهب إليه ابن تيمية ومن تبعه وتقلد مذهبه هو ناتج من عدم التفريق بين الصفات الأزلية لله تعالى وبين الموصوف الحادث المتعلق بالمشيئة والارادة.

5- قول الله تعالى "ولا يحيطون به علماً" وكذلك ذم السلف الخوض في الغيبيات بكيف ولِمَ فيه كفاية وهداية لمن يجهد عقله في معرفة كيف كان الله ولا شيء غيره.

6- الظاهر من نصوص الشريعة أن الله تعالى خلق الماء ثم خلق العرش على الماء لقوله تعالى "وكان عرشه على الماء"

7- خلق الله العرش قبل القلم لدلالة الأحاديث الصحيحة عليه.

8- التمسك بنصوص الوحي عصمة ونجاة من الضلال والزلل.

هذا ومن جيد كلام ابن تيمية ويحسن أن نختم به
قوله في درء تعارض العقل والنقل (262/3):
واعلم أن مثل هذه الاعتراضات مع صحة الفطرة وحسن النظر يعلم فسادها ومثل هذه الخواطر الفاسدة التي تقدح في المعلومات لا نهاية لها ولا يمكن استقصاء ما يرد علي النفوس من وساوس الشيطان. ه

وقال وهو من أنفس ما قال:
فإن الأقوال التي تخالف ما عُلم من نصوص الأنبياء هي من أقوال الملاحدة ومن عارض نصوص الأنبياء بعقله كان من الملاحدة. ه
(درء تعارض العقل والنقل 179/9)

فتمسك أخي الكريم بهذه النصائح الغالية من الامام واجتنب ما زلت قدمه فيه فالعصمة في الوحي المُنزَّل وليس في آراء الرجال والله الموفق والهادي.

إضافة

هنا بعض الأسئلة تلخيصاً لبعض ما سبق:

- هل هناك خلق قبل هذا الكون ؟
الجواب: الله أعلم فهذا مما لم نحط به علماً من خبر الوحي

- هل الشريعة تنفي وجود عوالم أو أكوان قبل هذا الكون ؟
الجواب: الشريعة لا تثبت ولا تنفي وجود أكوان قبل كوننا وإنما يترك هذا لعلماء الكون المختصين إن استطاعوا الوصول إلى جواب مثبت بالدليل

- ما الذي تنفي الشريعة حدوثه في هذا الباب ؟
الجواب: الشريعة تنفي أزلية المخلوقات نوعاً أو عيناً
فمهما افترضنا من وجود خلق قبل الخلق المشهود فإن له بداية
(كان الله ولا شيء غيره)

- هل التسلسل في الحوادث والمخلوقات ممكن أم ممتنع ؟
الجواب: لا يمتنع علي الله شيء إذ هو مطلق القدرة والقوة والارادة والفعل والخلق فلا يمتنع عليه شيء سبحانه

- هل التسلسل في الماضي يمتنع علي الله ؟

الجواب: لا يمتنع على الله شيء وإنما يمتنع في الشرع لورود الدليل بمنعه

- هل التسلسل في الماضي ممكن في العقل ؟
الجواب: يمكن تصوره عقلاً وقد قال به جماعة من العقلاء والفلاسفة وعلماء الطبيعة

- هل يجوز القول بالتسلسل في الماضي ؟
الجواب: نصوص الشريعة ترفض القول بالتسلسل في الماضي لأنه ابتداءً:
قول محدث لا دليل عليه من القرآن والسنة ولا من أقوال الصحابة
وثانياً: هو مخالف لقول النبي صلى الله عليه وسلم (كان الله ولا شيء غيره)

ولفظة (غيره) هي اللفظة الصحيحة في الحديث
وهي الأكثر رواية والأثبت ضبطاً
وما ورد من ألفاظ أخري في بعض طرقه فهي من الرواية بالمعني

- أليس القول ببدء الحوادث يلزم منه القول بأن الرب ظل معطلاً عن الخلق زمانا غير متناهي في الأزل ؟
الجواب: هذا الزام غير منطقي ولا يتصور في حق الخالق القدير فإن التعطيل هو عدم القدرة وهو عجز لا يوصف الله به والله على كل شيء قدير فهو الخالق وليس ثم خلق وخلقه متعلق بمشيئته إذا أراد كان وإذا لم يرد لم يكن والله لا يجري عليه الزمان ولا يحويه المكان وتصور كيف كان الله قبل أن يخلق الخلق افتراض غيبي ليس عليه دليل ولا ينبني على علم صحيح فالله غيب لا ندري عنه الا ما أخبرنا به وما لم يخبرنا به لا نقول فيه كيف فالله ليس كمثله شيء سبحانه

هذا إذا سلمنا بوجود الزمان قبل خلق المكان وهو قول متناقض في العلم والعقل وليس عليه دليل من الشرع.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم
و الحمد لله رب العالمين

كتبه

أحمد فوزي وجيه

1437 ه - 2016 م

الانتهاء من الزيادة والتعديل

2023/10/4